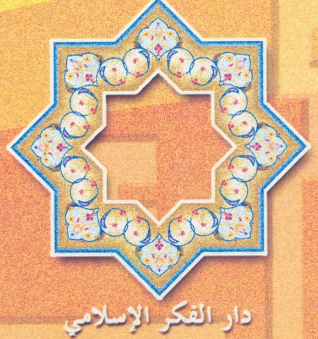


موقفنا من

العلمانية
القومية
الإشتراكية



دار الفكر الإسلامي

جمال البنا

موقفنا من

العلمانية. القومية. الاشتراكية

دار الفكر الإسلامى

١٩٥ شارع الجيش-١١٢٧١ القاهرة- هاتف وفاكس ٥٩٣٦٤٩٤

e.mail gamal_albanna @ infinity. Com.eg : بريد الكمبيوتر

http: //www. Islamiccall. Org . : موقع الإنترنت

رقم الإيداع : ٢٠٠٣/١٠١١٧
I.S.B.N. : 977-5378-90-0

مُقَدِّمَة

كنت قد كتبت عن موضوعات الاشتراكية والقومية والعلمانية فى بعض كتبى مثل "الدعوات الإسلامية المعاصرة ما لها وما عليها" و"البرنامج الإسلامى" و"الإسلام والحرية والعلمانية" ثم رأيت أن من الخير أن أجمعها فى كتاب حتى يسهل على القارئ الذى يُعنى بها بالذات الإلمام بها بدلاً من البحث عنها فى أشتات الكتب التى قد لا تكون متوفرة عنده بالكامل خاصة أن بعضها قد مضى عليه عشرون عاما. وانتهزت الفرصة لأنقحها بالحذف أو التعديل طبقاً لآخر ما انتهى إليه اجتهادى كما أضفت زيادات عديدة ووضعت فصلاً أخيراً بعنوان "البديل" .

وقد ظن بعض الناس أن الاشتراكية قد فقدت أهميتها بعد انهيار الاتحاد السوفيتى الذى كان يرفع لواءها واستسلامه لغريمته اللدود أمريكا. ولكن الحقيقة أن هزيمة الاتحاد السوفيتى لا تعنى هزيمة الاشتراكية وإنما تعنى فشل التجربة التى تبناها. والتى كانت مخالفة لروح الاشتراكية ولسياسة الاشتراكية طوال الفترة التى أعقبت موت ماركس حتى الحرب العالمية الأولى. وتبنتها كل الأحزاب الاشتراكية التى كانت تحمل اسم "الحزب الاشتراكى الديمقراطى" حتى قام لينين ببلشفة الاشتراكية وقضى على "الديمقراطية" سواء فى تسمية الحزب أو فى حقيقة وجودها فى المجتمع الاشتراكى وكان هذا هو السبب الذى أدى إلى انهيار الاتحاد السوفيتى وقد عادت الأحزاب الاشتراكية تحمل مرة أخرى الديمقراطية فى اسمها وكان هذا عودة إلى التقليد الاشتراكى الأصيل. كما أن انفراد الرأسمالية بما غرس فيها من استغلال يمكن أن يعيد إلى الوجود سوءاتها التى دفعت أول مرة إلى ظهور الاشتراكية .

ويعلمنا التاريخ أن زوال عهد لا يعنى اندثاره لأن آثاره تبقى ويحكم الموتى من قبورهم، وتؤثر شعوبهم أن يتبعوا ما ألفوا عليه آباءهم، ولو كان استعباداً، فكما قال شوقى :

من يترك النير يعش برهة
في أثر النير وفى ندبه

والذين يندبون الاشتراكية ويتباكون عليها فى الشرق أكثر مما هم فى الغرب – وفى روسيا نفسها .

وفى جميع الحالات، فإن الدور الذى قامت به الاشتراكية فى تاريخ الفكر السياسى الحديث، بل وفى التجارب السياسية القائمة مما لا يمكن إغفاله وقد يسمح التطور لها بجولة أخرى، لأن وجودها أمر "جدلى" بالنسبة للرأسمالية فى المجتمعات الأوربية .

وهذا ما يمكن أن يقال عن القومية التى ظهرت على الساحة فى إحدى لحظات الحرج، وكرد فعل دون أن تكون فعلاً أصيلاً، ولكنها رزقت عوامل مواتية جعلتها تشغل الساحة وتظفر فى بعض الحالات بالصدارة حتى بعد تهاوى المشروع الناصرى بعد هزيمة ١٩٦٧ .

وقضية "العلمانية" لا تقل عن هذين أهمية، خاصة عندما يتعلق الأمر بالدين، لما سبق إلى الأذهان من التعارض ما بين العلمانية والدين وهو تعارض إذا جاز بالنسبة للمسيحية، فقد لا يؤخذ على علاته بالنسبة للإسلام الذى يتفق – فيما ذهبنا إليه – مع العلمانية فى جوانب وإن اختلف معها فى جوانب أخرى، ولكن تظل للعلمانية أهمية حتى لا يطغى التدين الأخروى على التدين الدنيوى .

وكل ما جاء فى هذه الرسالة يعبر عن موقف دعوة الإحياء الإسلامى إزاءها – أى إزاء الاشتراكية والقومية والعلمانية .

ونحن فى عرضنا لهذه الموضوعات وتحديد موقفنا منها نلتزم الأمانة فى العرض، وذكر الحسنات والسيئات، نقاط القوة والضعف ولا نغمط واحدة

منها حقها، وإننا فى تقييمنا ننطلق من قاعدة هى الإيمان بقيم الحرية، والعدالة، والخير، والمعرفة والتعايش مع ضرورات العصر، وهى فيما نرى قيم الإسلام، وجوهر دعوة الإحياء ...

وقد تمنى بعض الذين يتابعون كتاباتنا لو لطفنا لهجة الحديث أو ابتعدنا عن نقاط الخلاف وقنعنا بنقاط الائتلاف حتى لا نكتسب عداوة المخالفين، ومع تقديرنا لما فى هذه الملاحظة من وجاهة وأهمية إلا أننا نؤثر أن نقول الحقيقة كاملة وأن نعرض الأبعاد كلها وأن نصدع بكلمة الحق لا كلمة المهادنة أو التسوية. فهذا فكر وليس سياسة ودور المفكر هو أن يقول الحقيقة كاملة وبلا هوادة وقد تحدث القرآن والإنجيل عن المخالفين بعبارات قاسية صريحة ونددا بنواحى الخطأ والانحراف، ولا يجوز مطلقاً فى مرحلة وضع النظرية أى حيف عليها، أو انتقاص منها إتقاءً لعداوات أو كسبا لصداقات. فإن هذا قد يحدث عندما تدخل النظرية فى خضم السياسات، ويكون هذا على مسئولية وباسم القائمين عليها، وليس باسم النظرية فى حد ذاتها، أو باسم واضعها الأصلى .

جمال البنا

القاهرة فى : ربيع ثانى ١٤٢٤
يونيـــو ٢٠٠٣

الفصل الاول
الموقف من العلمانية(*)

تعود الفكرة الضبابية أو الضالة عن الإسلام والعلمانية إلى لَبْس بالنسبة للمرجعية الإسلامية يصطحب به لَبْس آخر ينشأ عن الحكم على الإسلام بما حدث للمسيحية .

اللَبْس الخاص بالمرجعية الإسلامية :

نشأ هذا اللبس من اعتبار الأحكام التى أسسها الفقهاء والأئمة منذ ظهور المذاهب فى القرن الثالث الهجرى ومن ظهر بعدهم من المجددين مثل ابن تيمية وابن حزم فى القرن الثامن والشوكانى فى القرن الحادى عشر ومحمد عبده فى القرن الرابع عشر الهجرى حتى زعماء الدعوات الإسلامية المعاصرة (المودودى – حسن البنا – سيد قطب) هى الآراء التى تمثل وجهة نظر الإسلام فى العلمانية وفى غيرها .

(*) إذا كانت العلمانية هى توثين الإنسان، وليس عبادة الله والاعتراف بالحياة الدنيا وجحود الحياة الآخرة. فلا جدال فى مخالفتها بل ومناقضتها للإسلام. ولكننا لا نفهم العلمانية بهذا المعنى. ولكن أنها الفصل بين الدولة والدين. بمعنى أن الدولة لا تمارس مهاماً دينية ولا تعنى بمناشط دينية وإنما تدع الدين للناس تؤمن به كما تشاء، بل لعل الدولة العلمانية قد تناصر الكنائس. دون أن تتدخل فى عمل الكنائس أو تسمح للكنائس بالتدخل فى عملها والشواهد عديدة فحرية الاعتقاد مقررة للجميع والكنائس قائمة فى الدول العلمانية بل وهناك أحزاب مسيحية. بهذا المعنى وحده نفهم العلمانية ويدور عليها الحديث فى هذا الفصل .

وهذا لبس مفهوم، فأساتذة الجامعات الدينية يرون فى هؤلاء أساتذتهم العظام كما أن أساتذة الجامعات المدنية والمستشرقين يرون فى هؤلاء الممثلين الطبيعيين للفكر الإسلامى. ومن هنا اتفق الجميع على اعتبارهم المرجعية المعتمدة والمقررة للتعبير عن الإسلام .

والحقيقة أن هؤلاء جميعاً حتى المتقدمين منهم كأئمة المذاهب الأربعة خضعوا لمناخ سياسى واجتماعى وثقافى معين وتأثروا تأثراً عميقاً ببيئاتهم وسمح تأخر تدوين السُنة لمائة عام بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بإقحام أعداد هائلة – بمئات الألوف – من الأحاديث المكذوبة، كما أن أسلوب القرآن القائم على المجاز الفنى والنظم الموسيقى واللمسة السيكولوجية أفسح المجال للتأويل والتفسير ودخول إسرائيليات عديدة فى كتب التفسير المعتمدة وبقدر ما كان الزمن يبعد عن العهد النبوى ويوغل فى ظلمات الحكم الفردى وسيادة الجهالة وهيمنة الفرس والترك على الخلافة وتمزق الحكم الإسلامى... بقدر ما كانت هذه المؤثرات تنعكس على كتابات وأحكام الفقهاء، لأنه من العسير جداً على الكاتب أن يخرج عن أطر عصره ومستوى فهم هذا العصر، وليس أدل على هذا من أنه عندما تكاثفت الظلمات قرر الفقهاء أنفسهم إغلاق باب الاجتهاد الذى يصور العجز عن إعمال العقل والتسليم بما ذهب إليه الأئمة والأسلاف، أى الإفلاس الفكرى كلية .

وبصرف النظر عما فى هذا الكلام من حقيقة، فإن الأمر الذى لا نزاع فيه والذى يرقى إلى مستوى البدائه أن ما يمثل الإسلام حقا هو كتاب الإسلام الأصيل – أى القرآن – وكان المفروض عندما يراد معرفة حكم الإسلام فى أمر أن يرجع إلى القرآن نفسه، وليس إلى تفسيرات المفسرين له الذين خضعوا للمؤثرات التى أشرنا إليها وحافت على النص القرآنى، كما كان يجب أن تضبط السُنة – التى تسلل إليها الوضع بضوابط حتى لا يسمح للأحاديث الموضوعة أو المحرفة بإصدار أحكام مجافية أو حتى مخالفة للأصول التى أرساها القرآن .

ولكن لما كان ذلك أمراً صعبا، وفى الوقت نفسه يجاوز الأطر السلفية والأحكام التى وضعها بالفعل أئمة المذاهب، فقد آثر الكتاب

الإسلاميون وتبعهم فى هذا المستشرقون – أن يأخذوا أحكامهم من الأحكام الفقهية التى وضعها الفقهاء منذ ألف عام... واعتبروها حكم الإسلام .

ومن هنا نشأ اللبس الأول وأخذ ما يقال أو يكتب عن حكم الإسلام على العلمانية من الفقهاء حتى لو كان يجافى أو يخالف حكم القرآن للعوامل التى تحكمت فى الفقهاء وأشرنا إليها آنفا .

لَبْس الحكم على الإسلام بما حدث للمسيحية :

يعود اللبس الثانى بالنسبة لموقف الإسلام من العلمانية إلى تطبيق الكتاب الأوربيين أحكامهم عن المسيحية على الإسلام، فى حين أن هناك فرقا جذريا بين الإسلام والمسيحية، أو على الأقل بين الإسلام والكنيسة المسيحية .

إن أى دارس للحضارة الأوربية يعلم أن جذورها الحقيقية يونانية – رومانية، والحضارة اليونانية والرومانية حضارة وثنية – لا بمعنى أنها تعبد الأصنام والأوثان – ولكن بمعنى أنها تتجاهل فكرة الله بالتصور الذى نجده فى الأديان السماوية وترفض بوجه خاص ما يرتبط بها من وجود عالم آخر للحساب والثواب[١]. فهذه الفكرة لم تكن فحسب مستبعدة من الإيمان الإغريقى والرومانى، بل إنها فى الحقيقة معارضة تماماً للأساس الذى قامت عليه هاتان الحضارتان، ذلك أنهما عندما استبعدا الله، ألها الإنسان، وعبر عن ذلك أول حكماء اليونان "الإنسان مقياس الأشياء"، وهو المعنى الذى كرره كانت وهيجل بتعبيرات أخرى مثل "الإنسان غاية فى ذاته" فالحضارة الأوربية هى السليلة الشرعية لليونان والرومان، وعندما أرادوا النهضة أخذت هذه النهضة شكل إحياء **renaissnce** الحضارة اليونانية/ الرومانية .

وكما تكوّن "الإنسان" المؤله فى أثينا، وفى روما، فإنه نشأ فى صورة الفرد المحَررَ – فى محضن "البور" أو "البورج" فى القرن الثانى عشر

---

(١) ولهذا فإن تناقض الوثنية اليونانية/ الرومانية لا يقتصر على المسيحية لأنها تتناقض بشكل أكبر مع الديانة المصرية القديمة، والإسلام ففى هذين نجد أعلى تركيز لفكرة "اليوم الآخر" .

والثالث عشر فى بريطانيا وفرنسا، وهذا الفرد هو الذى حملت الحضارة الأوربية المعاصرة شارته التى تقوم على الحرية لا الإيمان، والتعاقد لا الالتزام، والفرد وليس الجماعة، وهكذا ظهرت البورجوازية بواجهتيها السياسية وهى الديمقراطية، والاقتصادية وهى الرأسمالية. ومما لا يخلو من دلالة أننا لا نجد فى التاريخ الأوربى - من اليونان حتى الرومان ذكرا للرسل والأنبياء، فقد حل الفلاسفة والأدباء والمفكرون محلهم، ووضعوا "الضمير" وغرسوا الوجدان بما أبدعوه من فنون .

وفى جميع الحالات من أقدم العصور - اليونان - حتى نهاية التاريخ، على ما ذهب إليه فوكوياما، كان الاستمتاع والربح والقوة والحرية والسيطرة هى الأهداف العظمى لهذه الحضارة، وكانت القيم الحاكمة فيها هى الحرية والقوة والنظام (أو القانون) ولم تأبه الحضارة الأوربية بقيم كالرحمة والخير والصفح والعدل .

فى هذه الحضارة تكون الدنيوية أو العلمانية جزءاً لا يتجزأ منها، يسرى فيها مسرى الدم فى العروق، ولا يتصور شىء آخر خلافها .

ولكن هذا الشىء الآخر ظهر مع دخول المسيحية بمثل وقيم تختلف عن قيم ومثل الحضارة الأوربية، ومع أنها كدين لا تستهدف السيطرة أو الحكم لأن هذا يخالف طبيعتها، وقد قال المسيح "أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله" ونفى أن تكون مملكته فى هذه الدنيا، فإن الذى يحدث هو أنه ما إن تظهر الأديان حتى تظهر فى مرحلة لاحقه المؤسسة الدينية المحتكرة المنتفعة، وحتى يبرز الكهنة الذين يوجدون فى معبد، والسدنة الذين يحرسون كل هيكل، وجباة العشور الذين يفيدون من العقيدة التى أصبحت مذهبا والإيمان الذى تجمد فى كنيسة .

وللمؤسسة الدينية طبيعة تختلف تماماً - أو حتى تتنافى - مع طبيعة الأديان، فطبيعة المؤسسة الدينية ذاتية وطبيعة الأديان موضوعية، وتتعرض المؤسسة الدينية لعملية من التداخل السيكولوجى توحد بين الدعوة وأشخاص الدعاة بالمؤسسة والذين يتحدثون باسم الدين، وبعد فترة يصبحون هم

بأشخاصهم محل الدعوة، وبهذا يطرحون على الدعوة كل ما فى النفس البشرية من طموح وقصور .

ويتكرر هذا بالكامل فى المؤسسة السياسية ذات الطابع الأيدلوجى الشمولى – شيوعية، أو فاشية – حيث يقوم الحزب بدور الكنيسة، ويصبح قادته أساقفة الكنيسة الذين يحتكرون وحدهم تفسير النظرية .

وبالنسبة للمسيحية بالذات، فإن عوامل معينة اعتبرت الكنيسة الممثلة الوحيدة والمشروعة للديانة، كما أن ظروف أوربا فى القرون الوسطى جعلت الكنيسة هى السلطة المركزية الوحيدة وسط أرخبيل الدويلات التى كانت تغطى سطح أوربا، وتقسمها إلى مئات الدويلات يحكم كل دويلة دوق، أو كونت أو لورد الخ... وكانت قواعد الطوائف الحرفية وطوائف التجار تفصل ما بين المدن بعضها بعضا، فضلاً عن العوامل الجغرافية من جبال أو أنهار قبل ظهور وسائل النقل والاتصال الحديثة الخ... فى هذه الملابسات كانت الكنيسة الكاثوليكية هى القوة الوحيدة ذات السلطة المركزية والرئاسة الواحدة، وكان الأساقفة ورسل البابا هم الذين يجوبون أوربا ويخترقون حواجزها، فضلاً عن أن بعضهم كان يحكم بالفعل دويلات منها وفى الداخل كان الجمهور الأوربى ينظر إلى الكنيسة باعتبارها "أُمنا الكنيسة" التى يعمد فيها أطفاله ويعقد فيها زيجاته ويدفن فيها أمواته. ويعيشون حياتهم فى أحضانها وكانت الكنيسة هى التى تتولى التقسيم الإدارى فى المدن والقرى إلى "ابرشيات"، وتسجل فى دفاترها الولادات والزيجات والوفيات .

وقد عملت الكنيسة على توحيد أوروبا فى مناسبتين الأولى، عندما توجت شارلمان – فى سنة ٨٠٠ – ووكلت إليه توحيد الولايات والمقاطعات الخ... فقام بهذا، والثانية، عندما أرادت أن توقف الحروب داخل أوروبا ما بين الأمراء وأن توجهها إلى الشرق، فأعلن البابا أوربان الثانى فى عام ١٠٩٥ الحروب الصليبية التى وحدت سيوف أوربا ووجهتها نحو الإسلام(١).

---

(١) وهو الأمر الذى دعا إليه المفكر الألمانى ليبنتز بعد ذلك بخمسة قرون .

وحاول بعض الملوك الأقوياء التخلص من وصاية الكنيسة، فتصدت لهم وأخضعتهم، وقد يصور ذلك ما حدث للإمبراطور الجرمانى هنرى الرابع الذى أعلن البابا جريجورى السابع حرمانه فاضطر سنة ١٠٧٧ لأن يذهب إلى البابا فى قرية كانوسا حيث كان هناك، وأن يقف على بابه ثلاثة أيام قبل أن يسمح له بالمثول بين يديه ويظفر بالصفح عنه .

وحفلت المدة من ١٠٧٧ حتى منتصف القرن السادس عشر بالمنازعات حتى استطاع الملك هنرى الثامن ملك إنجلترا أن يتحرر من وصاية الكنيسة الكاثوليكية وأن ينصب نفسه "حاميا للعقيدة" كما ظهر مارتن لوثر وخلص ألمانيا من وصاية الكاثوليك وفى النهاية انحسم الصراع لمصلحة الملوك والقوميات انفجار الثورة الفرنسية .

وكان السبب الأكبر فى هزيمة الكنيسة أنها قاومت الحريات: حرية العقيدة عن طريق إقامة محاكم التفتيش الرهيبة وحرية الفكر بتقييد طبع الكتب وتحريم تداول كل الكتابات التى تخالف وجهة نظر كنيسة روما بمقتضى ما يسمونه الجدول **INDEX LIBRORUM PROHIBTORUM** الذى تعود فكرته وقراره الأول إلى مجمع نقيه سنة ٣٢٥ عندما حرم كتاب الأسقف أريوس المعنون **THALIA** ويعود تاريخ ظهوره الفعلى مع تطبيقه على ما سبق إلى مجمع ترينتى سنة ١٥٦٤ وهذا الجدول يصدره البابا ويعاد طبعه كل عام، ويتضمن أسماء الكتب التى تحرم الكنيسة طباعتها وتداولها، ويدخل فيها بالإضافة إلى نصوص التوراة والأناجيل غير المعتمدة لديها كتب كثيرة منها كتب لجاليلو، وهوبز، وديكارت، وجان جاك روسو، وفولتير، ومونتسكيو، وكانت، وجوته، وسبينوزا، وجون ستيورات ميل، وفيكتور هوجو، وفورييه، وماركس، وبرجسون الخ... وتمسكت الكنيسة بحماقة بفكرة ثبات الأرض وأنها لا تدور، واعتبرتها قضية مقدسة ثلاثاً، وأنها أهم من أية قضية تتعلق بالعقيدة المسيحية ووقفت الكنيسة دائما فى صف النبلاء ضد الجماهير، وكان للأساقفة تمثيل كبير خاص بهم فى مجلس اللوردات وقاوموا أولى الانتفاضات الجماهيرية فى بريطانيا التى حملت اسم ثورة الفلاحين فى القرن الرابع عشر. كما قاومت الكنيسة البروتستنتية وعلى رأسها وقتئذ

مارتن لوثر نفسه قومة الفلاحين الألمان التى عرفت باسم ثورة الفلاحين فى القرن السادس عشر، ودعا مارتن لوثر النبلاء إلى سحقها بكل قوة .

ويوضح استعراض الوقائع السابقة أن نشاط الكنيسة وليس المسيحية كان العامل الحاسم الذى جعل الحكم ثيولوجيا – أما المسيحية نفسها فهى بعيدة تماما عن محور الصراع وغايته وقولة المسيح "أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله" معروفة، كما يدل الدليل السلبى على النتيجة نفسها، أعنى أن انتفاء وجود المؤسسة الدينية – أو إبعادها هو الذى سمح بوجود العلمانية فى أوربا فالكنيسة هى العامل الرئيسى سلبا وإيجابا وليس المسيحية التى لا تزال موجودة فى أوربا ويعتبرونها من الأصول التى قامت عليها الحضارة الأوربية جنبا إلى جنب التراث الإغريقى والرومانى .

وكان لابد أن ينشأ صراع ما بين المجتمع الأوربى الذى يعود بجذوره إلى أثينا وروما والسلطة الكنسية التى جاءتها من الشرق، وظل المجتمع الأوربى ممثلا فى مفكريه يصارع الكنيسة وقيمها حتى الثورة الفرنسية ١٧٨٩ التى كانت أولى بوادر انتصار هذا المجتمع على الكنيسة .

وشيئاً فشيئاً استرد المجتمع الأوربى من الكنيسة السلطات والصلاحيات التى كانت تمارسها ولم يبق لها من دور إلا تعميد الأطفال أو تزويج الشباب أو دفن الموتى، وعندما قنعت الكنيسة بذلك لم يضن عليها المجتمع الأوربى الذى استرد "دنيويته" بجزء من الكعكة – فأفسح لها جانبا بين المؤسسات الأخرى، وفى بعض الدول – كألمانيا – تقوم السلطات بخصم نسبة مئوية للعمل الخيرى من الأجور وتحولها للكنيسة. وبهذه الطريقة استعادت أوربا الدنيوية التى هى فى أصل حضارتها واحتفظت فى الوقت نفسه بالكنيسة – كما كانت روما تحتفظ بنُصب للإله المجهول[1]. ولو تصورنا مسيحية بدون كنيسة لكان من المحتمل أن لا يقوم هذا الصراع الطويل الذى استهدف استرجاع الدنيوية لأن المسيحية وإن كانت قيمها

---

(١) كان من المألوف فى بعض المعابد الرومانية أن يقام نُصب يكتب عليه "الآلة المجهول" ولعل هذا كان فى أصل فكرة "الجندى المجهول" فيما بعد وما أشبه .

تختلف عن قيم الدنيوية الأوربية فلم يكن منها ضير ما ظلت تقوم بدعوتها "بالحكمة والموعظة الحسنة" وإعطاء ما لقيصر لقيصر... ولكن الكنيسة – وليست المسيحية – هى التى استهدفت السلطة، وهى التى قاومت العلماء والمفكرين وأقامت محاكم التفتيش وفرضت رقابة قاسية على إصدار الكتاب الخ ...

ومع أن أوروبا قد صفت حسابها مع الحكم الثيولوجى بقيام الثورة الفرنسية وما أعقبها من أحداث أبعدت الكنيسة عن المشاركة فى الحكم أو الهيمنة على الفكر فإننا نجد للكنيسة فى المجتمعات الشرقية نفوذاً كبيراً يجعلها إلى حد ما مسئولة عن مصالح المسيحيين ومشاركتهم فى الحكم ومكانتهم فى المجتمع، وهو وضع نشأ عن كونهم بالدرجة الأولى أقليه فى المجتمع الإسلامى. مما قد يبرر ذلك، ولكنه يوجد حساسيات، بل ومشاكل لأنه يعطى للكنيسة سلطة على المجالات الدنيوية للمنتمين إليها والمفروض أن تدع كل هذه المجالات للسلطات المدنية والنظم السياسية القائمة، ويعد الخروج من هذا الإطار نوعاً من الاحتفاظ ببعض سلطات ونفوذ الكنيسة عندما كانت هى التى تحكم المجتمع .

* * *

إذا خلصنا من اللبس الأول بحيث يكون مرجعنا هو القرآن، وليس المقررات الفقهية، وإذا سلمنا بأن الأحكام التى تصدر على الكنيسة الكاثوليكية لا يمكن أن تنطبق على الإسلام ببساطة لعدم وجود مثل هذه الكنيسة فإن الجو يتهيأ لمعالجة قضية العلمانية والإسلام .

أول ما يلفت الانتباه أن الإسلام على نقيض الأديان السابقة لم يجعل دليلاً على مصداقيته معجزة خارقة للعادة، مخالفة للنواميس، كإحياء الموتى أو عدم الاحتراق بالنار أو تحويل عصا موسى إلى حية تسعى الخ... إن معجزته هى "كتاب" ووسيلته إلى كسب الإيمان هى تلاوة هذا الكتاب، ورفض القرآن طلب المشركين معجزة ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنْ الأَرْضِ يَنْبُوعًا(٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا(٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ

وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً(٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلا بَشَرًا رَسُولاً﴾. {٩٣ الإسراء}.. فهذه الآيات ليست فحسب ترفض ما طلبوه من معجزات ولكنها أيضاً تقرر ببساطة رائعة بشرية الرسول "هل كنت إلا بشراً رسولاً".

ويصور القرآن نفسية الناس وقتئذ بقوله ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا(٧) أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلا رَجُلاً مَسْحُورًا﴾. {٨ الفرقان}.. ومرة أخرى ﴿وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ(٥٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. {٥١ العنكبوت}.. فانظر كيف عزل القرآن عالم المعجزات عن عالم الدنيا ووكل الأول إلى الله وخص الرسول بأنه "نذير مبين" وكيف جابه المشركين بأن فى الكتاب ما يكفى .

ركائز علمانية الإسلام

أولاً: طبيعة الإسلام :

ظهر الإسلام فى شبة جزيرة العرب حيث تنبسط الصحراء كالبحر وتنطلق الرياح كالعواصف. وبين أقوام لم يكدحوا بأيديهم فى الأرض ولم يحملوا على ظهورهم الحجر، مما شغل حياة الناس فى العهود القديمة، ولم تذل رقابهم لملك أو إمبراطور ولم يخضعوا لمران النظم وضبطها وربطها كانوا أحراراً يعيشون عيشة البداوة وتحكمهم الفطرة أو العرف ويتحملون الحر اللافح نهاراً والبرد القارص ليلاً ويعبدون آلهة من صنعهم فما كانت تملك تحريماً أو تحليلاً أو تفرض قداسة أو "تابو" من أى نوع، ولم يكن لديهم ميثلوجيا كالميثلوجيا اليونانية، أو الميثلوجيا العبرية (وهى التوراة زائداً ما أضيف إليه من أساطير وروايات) تثقل كاهلهم وتعقد أفهامهم ..

أخذ الإسلام شيئاً من هذه الطبيعة فكان حراً، بسيطاً، لا تعقيد فيه، ولا شىء يخالف الفطرة أو الطبيعة، ونفت منه الاحتكار والإقصاء اللذين

يخالفان الطبيعة الطليقة الحرة للصحراء. وعندما حكمت الضرورة بأن "يصطفى" الله تعالى أنبياءه فإن هذا تم على أساس أنهم نقلة الدعوة وليس أكثر وليس لهم من الأمر شيء، كما لم يستثن أو يقصى عن دعوته فئة وإنما وجهها لكل بنى آدم وللناس كافة . وهذه الصفة – انتفاء الاحتكار أو الإقصاء – من أبرز خصائص الإسلام .

وقد تصور طبيعة الإسلام بطريقة رمزية المسجد فالأرض كلها مسجد طهور تجوز الصلاة فيه، ومنظر القروى الذى يصلى على شاطئ النيل أو البدوى الذى يصلى وسط الصحراء من المشاهد المألوفة والمسجد نفسه ليس إلا أرضاً مسورة ولا يوجد بالمسجد أى نوع من الأثاث، ولا صلبان ولا على جدرانه صور، وليس هناك مذبح، ولا قماقم، ولا تماثيل، ولا أناشيد ولا تقدمة ولا بخور ولا صلبان فى اليد وتيجان على الرأس إلى آخر ما تحفل به الكنيسة المسيحية. ويمكن لأى واحد إقامة المسجد ويمكن لأى واحد يحفظ القرآن أن يكون إماما فى هذا المسجد والصلاة نفسها رغم أن فيها سجود وركوع، ولكنها لا تتطلب رسوماً أو طقوساً خاصة أولها أسرار خاصة ويمكن لكل واحد أن يؤديها بنفسه فى بيته، وحتى صلاة الجمعة فإنها لا تزيد على الصلوات العادية إلا بالخطبة التى يمكن لكل من يلم بالمعرفة الإسلامية أن يلقيها دون أن يلبس زيا معينا أو يشترط صفة كهنوتية بحيث لا يكون هناك فارق بين "المدنى" و"الدينى" إن بساطة المسجد الإسلامى جزء من طبيعته كمكان أريد به الصلاة وأن يتجرد من أى شيء يشغل المصلى أو يلفته عن صلاته .

وهناك مبدأ كأنما اشتق من هواء الصحراء وريحها المنطلقة، هو **مبدأ البراءة الأصلية** وأن الأصل فى الأشياء الحل، ولا يحرم شيء مالم يأت بتحريمه نص جلى لا يقبل التأويل من القرآن، وهذا المبدأ يتفق مع مبدأ إسلامى آخر مشتق من طبيعة الإسلام أيضاً هو إن **الإسلام دين الفطرة**، وأن كل طفل يولد مسلما حتى يمجسانه أو يهودانه أو ينصرانه أبواه. والفطرة، والبداهة، والحدس كلها متقاربات، وكلها تهدى إلى درجة من العقلانية قد تكون بسيطة أو ساذجة، ولكنها بعيدة عن الإنحراف ويغلب أن تكون صائبة، ولهذا فإن الإسلام يأتمن القلب البشرى ويرى الأثم هو ما حاك فى الصدر

وكرهت أن يطلع عليه الناس وأن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال ووجه الرسول أحد صحابته "استفت قلبك وإن أفتوك وإن أفتوك". كما إنه يتقبل الجسد، وأن المؤمن لا ينجس أبداً، وليست أساليب الطهارة إلا أداة لإثارة الوعى بالنظافة والأخذ بها، وهو يتقبل الطبيعة البشرية ولا يرى حرجاً في الإقبال على الطيبات من الرزق من طعام أو شراب. ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾. {٣٢ الأعراف} ..

ولا يستثنى من ذلك الغريزة الجنسية التى تصفها بعض الكتابات بالبهيمية لأن الإسلام لا ينظر إلى الإنسان كملاك مبرء من العيوب. نعم إن فطرته سليمة، ولكن الضعف البشرى مغروس فيه والشهوات التى تحيط به قد تنال منه أو تنحرف به وهكذا خلق الإنسان ضعيفاً وسوى الله النفس الإنسانية وألهمها فجورها وتقواها وموقفه من تصرفات الإنسان وسلوكه هو الموقف "العقلانى" فهو يعرف إن الإنسان لابد أن يضعف أمام الإغراء فيستسلم له، ولكن هذا لا يعد سقوطاً، فهذه هى الطبيعة البشرية، ولو لم يذنبوا.. لذهب الله بهم وجاء بناس يذنبون ويستغفرون فيغفر الله لهم. وينظر الإسلام إلى الغريزة الجنسية فى جسم الإنسان كالنفط الكامن فى الأرض يستخرج منه الإسفلت الثقيل الذى ترصف به الطرقات ويذلل الوطأ عليها وهو مطلوب بمواصفاته تلك لأنها المطلوبة لوطأ، كما يستخرج منه البنزين الذى يرفع الطائرة إلى عنان السماء ففى الغريزة الجنسية ما يصلح للوطأ، كما أن فيها شعاعاً من الحب يسمو بالنفس البشرية إلى الآفاق العلا.. وقد رفض الرسول حياة الرهبان وعنف من يصوم ولا يفطر ويصلى فلا يفتر وأن لا يقرب النساء، واعتبر ذلك مخالفاً للفطرة وللسُنة، واعترف بالغريزة الجنسية وأثاب عليها عندما توضع موضعها[١] .

ثانياً: انتفاء المؤسسة الدينية :

مع أن انتفاء المؤسسة الدينية له طابع سلبى إلا أن هذه السلبية هى الباب الذى يفسح السبيل أمام العلمانية. ومن هنا اكتسبت أهمية خاصة به. وقد رأينا فى الفصل السابق أن وجود المؤسسة الدينية وهيمنتها فى المجال

(١) انظر أيضا ص ٣٨ .

السياسى والمجال الفكرى كان هو الدافع الأول لظهور العلمانية، كرد فعل ولولا وجودها لأمكن للفكر الإنسانى أن يسير دون أن تقفه المحرمات والمقدسات التى اعتبرت "تابو" لا يجوز للفكر المساس بها .

وقد استبعد الإسلام المؤسسة الدينية التى تحتكر التفسير والتأويل والتحريم والتحليل وتكون واسطة بين الفرد والله وتؤدى وظائفها داخل مبنى له شروط معينة ككنيسة أو معبد ولا تجوز ممارسة الشعائر الدينية فى أى مكان آخر أو على أيدى رجال آخرين. واعتبر أن قيام الأحبار والرهبان بالتحليل والتحريم والوساطة بين الفرد والله نوع من الشرك... كما لم يربط بين أداء الشعائر بالمبنى المعين الذى تقيمه المؤسسة .

وقد كان من الأسباب التى أدت إلى انتفاء المؤسسة الدينية فى الإسلام بساطة ونصوع فكرة الألوهية وعدم قيامها على لاهوت يشق على الرجل العادى إدراكه ويحتاج إلى حبر أو قس أو كاهن متخصص .

وقد بنى القرآن الإيمان بالله نتيجة للخلق، وأن هذا الكون لابد وأن له خالق ودلل على منطقية ذلك ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾. {٣٥ الطور} ..

وهذه الحقيقة كانت من أكبر أسباب "علمانية" الإسلام لأنه أبعد كل المحاولات اللاهوتية التى تستعصى على العقول من مجال العقيدة .

وأدى حرص الإسلام على عدم قيام المؤسسة لأن يحمل حملة شعواء على الأحبار والرهبان، وأن يعتبرهم إحدى القوى التى تصد عن الهداية ويحرفون الكلم عن مواضعه .

- ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لا إِلَهَ إِلا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. {٣١ التوبة} ..

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنْ الأحبارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. {٣٤ التوبة} ..

▪ ﴿مِنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمْ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلا قَلِيلاً﴾. {٤٦ النساء} ..

▪ ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلا قَلِيلاً مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾. {١٣ المائدة} ..

▪ ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. {٧٥ البقرة} ..

والحقيقة إن الإسلام لم يستبعد فحسب قيام المؤسسة الدينية بل إنه جرد الرسل وهم الذين يمثلون الدين ويبلغونه للناس من كل سلطة سوى سلطة "البلاغ" وأن الهداية إنما هى من الله. والرسول لا يملك أن يهدى – ضرورة – من أحب .

واقرأ إذا شئت :

▪ ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾. {٢٧٢ البقرة} ..

▪ ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾. {٥٦ القصص} ..

▪ ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾. {٨ فاطر} ..

▪ ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾. {٩٩ يونس} ..

وحدد القرآن للرسول ما يفعله عند إعراض من يدعوهم ..

▪ ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾. {٤١ يونس} ..

- ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾. {١٢ هود} ..

- ﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾. {٤٠ الرعد} ..

- ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنْ الْمُشْرِكِينَ﴾. {٩٤ الحجر} ..

- ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾. {٨٢ النحل} ..

- ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾. {٤٥ ق} ..

- ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ(٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾. {٥٥ الذاريات} ..

- ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾. {٦ الشورى} ..

- ﴿أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى(٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى(٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلا يَزَّكَّى﴾. {٧ عبس} ..

- ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ(٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾. {٢٢ الغاشية} ..

وهذه الآيات التى تقصر صلاحيات الرسول على التبليغ دون محاولة الهداية تقرر ضمناً حق الآخرين فى الرفض، وإرجاء حسابهم إلى الله تعالى يوم الدين، وتوجه الرسول لأن لا يستشعر غضاضة من ذلك أو يحس ضيقا لأن الله تعالى يعلم ما لا يعلمه من طبيعة النفوس التى جبلها الله، وأن الإلحاح في الوعظ أو الجذب قد يوجد أثراً عكسياً. فى حين أنه لو ترك وشأنه فربما يعيد التفكير فيتوب ويتوب الله عليه وقد يعمل الكثير من الحسنات ليكفر عن سيئاته ويجعل الله تعالى سيئاته حسنات.. فضلاً عما يعلمه الله من غيب لا يعلمه الرسول، فقد يكون لهذا الرافض مستقبل فى الإيمان وخدمه الإسلام، وهل هناك من كان أشد عداوة للإسلام – فى فترة ما

– من خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وقد أصبحا من قادة الإسلام الإعلام .

واستوعب الرسول تماماً هذه التوجيهات، ولهذا كان مطلبه من مشركى قريش "خلوا بينى وبين الناس" لأنهم كانوا يحولون بينه وبين الاتصال بالناس أو يرسلون أتباعهم فى أعقابه .

ولكن علينا أن نعترف أن تطور المجتمعات من مجتمعات بسيطة الطبيعة محدودة العدد إلى مجتمعات "إمبراطورية" تتضخم فيها القضايا والاحتياجات فرض على هذه المجتمعات درجة من التخصص وعندما بلغ المجتمع الإسلامى هذه الدرجة من تطوره أصبح من الضرورى ظهور فئة تتخصص فى المعرفة الدينية الإسلامية، تعالجها من منطلق هذا التخصص فظهر علماء دين وليس رجال دين، فقهاء وليس أكليروس، ولكن هذه التفرقة بين علماء الدين فى الإسلام ورجال الدين فى المسيحية لم تثبت طويلاً وأصبح علماء الدين فى الإسلام كرجال الدين فى المسيحية يهدفون دائماً إلى احتكار "المهنة الدينية" ويتذرعون بما جاء فى سياق طويل مختلف فى إحدى الآيات ﴿فسألوا أهل الذكر﴾. وهم لا يرون تفرقه بينهم وبين الأطباء والمهندسين الخ... الذين يلجأ إليهم الناس عندما يريدون علاجا أو يقيمون بناء .

ولنذكر مرة أخرى قصة البشرية مع الأديان وأنه ما أن يقوم الدين حتى يظهر الكهنة، والسدنة، تحت أى اسم وفى أى صورة ما دام الهدف واحد هو الاستحواذ على الدين .

ولكن الإنصاف يقتضينا أن نقول إن المؤسسة الدينية فى الإسلام لا يمكن أن تقاس بالكنيسة فى المسيحية، لأن الأولى إنما وجدت بحكم التطور واستجابة لضرورة التخصص بينما الثانية موجودة بالنص فى الكتب المقدسة وبحكم الأوضاع الدينية ولهذا، فلم تحكم أبداً المؤسسة الدينية الإسلامية لا بصفة مباشرة أو غير مباشرة كما حدث بالنسبة للكنيسة عندما كانت تحكم بالفعل أو على الأقل هى التى "تعمد" الملوك ملوكا وتقدم لهم التاج. وهو

الأمر الذى كان مقرراً حتى رفضه نابليون... ولم تُقم المؤسسة الدينية الإسلامية ولا كان من سلطتها أن تنشئ محاكم دائمة مهمتها الوحيدة محاربة الزنادقة والحكم عليهم. وإن حكم الفقهاء فى عدد من الحالات بانحراف، أو حتى بردة البعض ولكنهم كانوا فى حقيقة الحال يمالئون الحاكم فى هذا، أو يحاولون اكتساب شعبية .

وعلى امتداد الحكم الإسلامى الطويل، كان الملوك والخلفاء، والأمراء هم الذين يحكمون الفقهاء والعلماء ومع أن بعض هؤلاء العلماء اكتسب شعبية كبيرة حتى أطلقت عليه الجماهير لقب "السلطان" أو "أمير المؤمنين" فما من واحد منهم كان له حظ فى الحكم أو يملك سيطرة على الحاكم وقصارى ما وصلوا إليه هو رفض قرار من قرارات يضطر الحاكم النزول عنه عندما يرى أن هذا التجاوب سيكسبه شعبية، فهو الكاسب فى النهاية .

ثالثا: تقرير الإسلام حرية الفكر ..

من أكبر العوامل التى تدعم العلمانية تقرير الإسلام حرية الفكر. وقد رأينا أن محاولة الكنيسة إغلاق أبواب التفكير ومقاومتها لكل العلماء والمكتشفين فى مجالات الطبيعة، والفلك، والرياضة الخ... كان من أكبر أسباب الثورة عليها، وإقامة مجتمع يعترف بحرية الفكر ويفتح الأبواب أمام الذين يريدون التعرف على عوالم العلم وأسرار الطبيعة وما فى هذا الكون من قوى، بل وما فى النفس الإنسانية، والجسم الإنسانى من مكونات هى سر انتظام صحة الإنسان ...

فى هذا المجال أسهم الإسلام فى تدعيم دعائم العلمانية بتهيئة مناخ حرية الفكر بحيث أن المجتمعات الإسلامية الأولى إكتسبت – رغم قيامها على الإسلام طابعاً حراً، وإن كان واجبا الإشارة إلى أن هذا الطابع لم يستمر، لأن عوامل التخلف والتدهور زحفت على المجتمعات الإسلامية، وكان من آثارها "إغلاق باب الاجتهاد" .

ومن أهم النقط إن القرآن لم يكتف بتقرير حرية الاعتقاد، بل إنه أبرز بوضوح وجلاء إن هذه القضية قضية شخصية فردية. فمن آمن فلنفسه، ومن كفر فعليها. ومعنى هذا أن هذه القضية لا تدخل فى إطار "النظام العام" الذى يبرر تدخل السلطات على نقيض ما تذهب إليه التقاليد المرعية، قديما وحديثاً .

وهذه ما توضحه الآيات التالية :

أ- أن الإيمان والكفر قضية شخصية لا تدخل فيها ولا إكراه عليها :

- ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. {٢٥٦ البقرة} ..

- ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾. {١٠٨ يونس} ..

- ﴿مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾. {١٥ الإسراء} ..

- ﴿وَقُلْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾. {٢٩ الكهف} ..

- ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ(٩١) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنْ الْمُنذِرِينَ(٩٢) وَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾. {٩٣ النمل} ..

- ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾. {٤٤ الروم} ..

▪ ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلا مَقْتًا وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلا خَسَارًا﴾. {٣٩ فاطر} ..

▪ ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنْ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾. {٤١ الزمر} ..

ب- أن الهداية إنما هى من الله، وطبقاً لمشيئته ..

▪ ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾. {٢٧٢ البقرة} ..

▪ ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾. {٨٨ النساء} ..

▪ ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ(٩٩) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾. {١٠٠ يونس} ..

▪ ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾. {٥٦ القصص} ..

▪ ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾. {٨ فاطر} ..

ج- أن الاختلاف فى العقائد بين البشر مما أراده الله تعالى وهو يفصل فيه يوم القيامة .

▪ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. {٦٢ البقرة}

▪ ﴿وَقَالَتْ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتْ النَّصَارَى لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾. {١١٣ البقرة} ..

▪ ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ(١٣٦) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمْ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. {١٣٧ البقرة} ..

▪ ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. {١٤٨ البقرة} ..

▪ ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾. {٨٤ آل عمران} ..

▪ ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ(١١٨) إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾. {١١٩ هود} ..

▪ ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾. {٤٦ العنكبوت}

▪ ﴿قُلْ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾. {٤٦ الزمر} ..

▪ ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾. {١٠ الشورى} ..

▪ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ(١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ(٢) وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ(٣) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ(٤) وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ(٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾. {٦ الكافرون} ..

د- أنه لا يوجد حد دنيوى عن الردة ..

▪ ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلْ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾. {١٠٨ البقرة} ..

▪ ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. {٢١٧ البقرة}

▪ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الضَّالُّونَ﴾. {٩٠ آل عمران} ..

▪ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً﴾. {١٣٧ النساء} ..

▪ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾. {٥٤ المائدة} ..

▪ ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلا أَنْ أَغْنَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُنْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمْ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾. {٧٤ التوبة} ..

▪ ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنْ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. {١٠٦ النحل} ..

▪ ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾. {٢٥ محمد} ..

ويجب الإشارة إلى أن هذه النصوص القرآنية أفضل بمراحل من النص فى الدستور المصرى سنة ١٩٢٣ الذى هو قمة الليبرالية التى وصلت

إليها الدساتير المصرية وهو "حرية الاعتقاد مطلقة" المادة ١٢ لأن النص الأول لهذه المادة الذى وضعته اللجنة المكلفة بذلك كان "حرية الاعتقاد الدينى مطلقة" ولكن الشيخ بخيت وهو أحد أعضاء لجنة وضع الدستور اعترض عليها قائلاً "إن المادة بحالتها الحاضرة لا يقرها دين من الأديان لأنها تؤدى إلى الفوضى والإخلال بالنظام وأطلب أن يكون النص قاصرا على الأديان المعترف بها سواء أكانت سماوية أم غير سماوية فلا يسمح بأحداث دين جديد كان يدعى مثلا أنه المهدى المنتظر ويأتى بشرع جديد" ولقد أيد هذا الاقتراح نيافة الأنبا يؤانس بقوله "اقتراح الأستاذ مفيد ولنا عليه دليل قريب، فإن سرجيوس خرج على الدين – المسيحية – وشرع فى استحداث دين جديد وطلب من الحكومة الترخيص له بذلك فرفضت وهذا دليل على أنه لا يمكن الترخيص بغير الأديان المعترف بها" كما اقترح الشيخ محمد خيرت راضى بك حذف كلمة الدين من الفقرة الأولى فتصبح "حرية الاعتقاد مطلقة" وشرح اقتراحه بقوله (وبغير ذلك يتاح لكل شخص أن يترك دينه ويعتنق دينا آخر دون أن يتحمل مسئولية ذلك من جزاء مدنى وغير مدنى) وقد تساءل إبراهيم الهلباوى بك فى حالة ما إذا أخذ الاقتراح وأصبحت الفقرة (حرية الاعتقاد مطلقة) عن أى اعتقاد يقصد المقترح وهل يدخل فيه الاعتقاد الدينى أولا، فرد الشيخ بخيت بقوله الاعتقاد شيء والدين شيء آخر، فالمسلمون اختلفوا إلى ثلاث وسبعين فرقة – لكل فرقه اعتقاد خاص – مع أن لهم دين واحد" وفى جلسة ٢٨ من أغسطس ١٩٢٢ قال الشيخ بخيت (حسما للنزاع الذى قام بشأن المبدأ الخاص بحرية الأديان أقترح أن تحذف كلمة الدين من صدر المادة، لتكون حرية الاعتقاد مطلقة بدلا من أن تكون حرية الاعتقاد الدينى مطلقة) موافقة عامة .

وقد أوضح الحكم الذى أصدرته الدائرة الرابعة بمجلس الدولة بتاريخ ٢٦ مايو سنة ١٩٥٢ فى قضية البهائيين تفسير هذه المادة استنادا إلى أعمال اللجنة التحضيرية على النحو التالى (لقد أصبح النص يحمى المسلم الذى يغير مذهبه من شافعى إلى حنفى مثلاً، والمسلم الذى يترك فرقة الشيعة وينضم إلى فرقة أهل السُنة أو فرقة الخوارج أو المعتزلة، كما يحمى النص

المسيحى الذى يدعى الكثلكة أو يتمذهب بالبروتستانتية ولكنه لا يحمى المسلم الذى يرتد عن دينه من أن يتحمل مسئولية تلك الردة مدنية كانت أو غير مدنية كما لا يبيح لأى شخص أن يدعى أنه المسيح نزل إلى الأرض أو المهدى المنتظر أو أنه رسول جديد يهبط عليه الوحى من السماء أو أنه صاحب كتاب سماوى إذ لا حماية لهذا الدعى من الدستور بحسب النص الجديد)، وهكذا بدلا من أن يتصور السذج من أمثالنا أن عبارة (حرية الاعتقاد مطلقة) أقوى من عبارة (حرية الاعتقاد الدينى مطلقة) فى دلالتها على حرية العقيدة، نرى هنا فهما آخر، مضمونة أن عدم ذكر الاعتقاد الدينى بالذات فى النص، معناه أن حرية الاعتقاد الدينى مستثناه وأنها غير مطلقة، ولست فى حاجة إلى أن أذكر أن نفس التفسير ظل واردا فى النص الجديد (الحالى) فى الدستور، والدليل على ذلك حكم المحكمة الإدارية فى القضية الأخيرة للبهائيين أيضاً والذى استند إلى نفس التفسير للتفرقة بين حرية العقيدة وهو ما ورد فى الدستور، وحرية العقيدة الدينية وهو ما لم يرد، فاعتبر استثناء[1] .

وأفضلية النصوص القرآنية التى أوردناها تثبت بصراحة وجلاء ثلاثة أمور الأول أن النص هنا على الاعتقاد الدينى الذى تحاشاه النص الدستورى. الأمر الثانى أنه قاطع فى الحرية "فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر" الأمر الثالث أنه جعل الإيمان والكفر قضية فردية، شخصية وبالتالى لا يجوز للنظام العام التدخل فيها ﴿مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾. {١٥ الإسراء} ..

ولا يماثل النصوص القرآنية إلا النصوص التى جاءت فى الإعلان العالمى لحقوق الإنسان المادة ١٨ .

* * *

(١) أنظر "الطائفية إلى أين" بحث الدكتور فرج فوده ص ٤٠ – ٤٢ دار المصرى الجديد للنشر – المكتبة السياسية ١٢ القاهرة .

وعلى نقيض ما يتصور البعض، فإن عمل الرسول وسياسته كانت تطبيقاً للآيات القرآنية، وعندما دخل المدينة لم يرحب به بعض سراة المدينة وشيوخ قبائلها لأنهم وجدوا أن هذا الدين سيحرمهم من مزاياهم القبلية وسيجعلهم سواسية مع بقية الناس. وكان كبير هؤلاء عبد الله بن أبَّى سيد الخزرج الذى كانوا ينظمون الخرز فى تاج له ليكون ملكا أو رئيساً فلما جاء الإسلام آلت الرئاسة إلى الرسول وإلى المؤمنين .

وتكون من هؤلاء ومن اليهود حلف جعل همه الكيد للرسول وإقامة العراقيل فى وجه الدعوة الجديدة والتآمر عليها. وقد وصل الأمر بعبد الله بن أبى أن انخذل بثلث الجيش عندما قرر الرسول الخروج فى غزوة أحد، فلم يخرج وبقى بالمدينة، وكان من أساليبهم إدعاء الإيمان ثم الكفر بعد ذلك لزعزعة إيمان المسلمين وإشاعة الشائعات ونشر الأكاذيب، وهؤلاء هم المنافقون الذين كشف الله سترهم، وأعلن خبيئة نفوسهم فى عدد من الآيات بل وأنزل سورة خاصة بهم هى سورة المنافقين .

فماذا فعل الرسول بهؤلاء الذين قال فيهم القرآن ﴿آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا﴾. وقال ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ﴾.وقال ﴿لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾. وهى آيات صادعة بردة هؤلاء وكفرهم بعد إسلامهم ...

لقد أحسن الرسول إليهم، وتغاضى عنهم وعندما عرض ابن عبد الله بن أبى وقد كان من خيرة المؤمنين أن يأتى الرسول برأس أبيه حتى لا يقتله أحد المسلمين فيجد فى نفسه غضاضة قال الرسول "بل نحسن صحبته" .

* * *

وجاء فى رسالة "السلفية المعاصرة إلى أين ؟" "ومن هم أهل السُنة" لفضيلة الشيخ محمد زكى إبراهيم رائد العشيرة المحمدية، وعضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، عرضا لبعض نماذج الذين ارتدوا على عهد الرسول فلم يقم عليهم حداً، ولم يطلب لهم استتابة ومن هؤلاء :

▪ **ارتد فى حياته بعض المسلمين أفراداً أو جماعات، وبعضهم كان ارتداده مرات لا مرة واحدة فما قتل أحدا منهم .**

▪ **ارتد رجل آخر عن الإسلام بعد أن كان من كتاب الوحى للرسول، ولم يتورع – مع ارتداده أن يقول الكلمة المنكرة التى رواها البخارى وغيره "ما يدرى محمد إلا ما كتبت له" .**

وعلى الرغم من ذلك كله تركه رسول الحرية حراً طليقاً وقبل فيه الشفاعة حتى مات على فراشه (أنظر هداية البارى إلى ترتيب أحاديث البخارى) .

▪ **وارتد اثنا عشر مسلما عن الإسلام على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم خرجوا من المدينة إلى مكة ومنهم الحارث بن سويد الأنصارى، فما أهدر الرسول دم أحد منهم، ولا حكم بقتل مرتد منهم واكتفى القرآن بقوله عنهم "ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه، وهو فى الآخرة من الخاسرين" .**

▪ **وارتد عبيد الله بن جحش بعد إسلامه وهجرته إلى الحبشة واعتنق النصرانية هناك فما أهدر النبى صلى الله عليه وسلم دمه، ولا طلب من النجاشى تسليمه إليه ولا أوعز إلى أحد بقتله .**

▪ **واعتنق النصرانية كذلك ولدان شابان من الأنصار فشكاهما أبوهما إلى الرسول قائلاً "يا رسول الله أدع ولداى يدخلون النار" فلم يقل له الرسول مثلاً اقتلهما أو دعنى اقتلهما وإنما أسمعه الآية القرآنية ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ﴾ .**

أما الأحاديث التى نسبت إلى الرسول عن عدم جواز قتل مسلم إلا فى حالة من ثلاث: قتل نفس، وزنا بعد إحصان والمارق عن الدين المفارق للجماعة. فقد ذهبت أغلبية العلماء، بما فيهم ابن تيميه إلى أن المقصود بالمارق عن الدين المفارق للجماعة هو ما يقرن ردته عن الإسلام بمحاربة الإسلام وأنه لم يحدث أن قتل أحد لمجرد ردته .

أما الحديث الذى يعتبرونه أقوى ما فى الباب وهو حديث "من بدل دينه فاقتلوه" فإن رواية البخارى لهذا الحديث جاءت عن عكرمة. وقد قبله البخارى، ولكن مسلم رفض كل أحاديث عكرمة، ولم يتضمن مسنده هذا الحديث بناء على قرائن توفرت له تجرحه ولا جدال أن هذه شبهة كبيرة تدعو إلى استبعاده فضلاً عن أن عمل الرسول يخالفه، بل وأيضاً عمل الصحابة والتابعين "لم يكفر الصحابة "القدرية" الذين قالوا أن الله لم يقدر – ولا يقدر – على تقدير الهدى أو الضلال على أحد، بل قالوا أن الإنسان يخلق عمل نفسه لنفسه بنفسه.. هداية أو ضلالا .

ولم يكفر الصحابة الفرق التى زعمت منهم أن الله أجبر الخلق وأكرههم على ما هم عليه، وأن الكفر والإيمان والطاعة والمعصية فى الناس كالبياض والسواد، والطول والقصر، فى خلقة الآدمى، ما للمخلوق فى ذلك صنع ولا يد .

بل إنه لما قتل إمامهم غسل وكفن وصلى عليه ودفن فى مقابر المسلمين .

ولم يكفر التابعون أحدا من المعتزلة الذين قالوا بخلق القرآن، وأن مرتكب الكبيرة فى منزلة بين المنزلتين فلا هو مسلم ولا هو كافر، بل هو خالد فى النار، وأن الله لا يخلق ولا يُقدِّر على العباد الذنب أو المعصية، بل العبد يخلقها ويقترفها، وأن الله لم يتكلم، وأن القرآن ليس بكلام الله، بل هو خلق مما خلق الله، فليس لله كلام عندهم .

ولم يكفروا المرجئة الذين يقولون: ليس على العرش إله يعبد، وليس لله فى الأرض كتاب لله ولا ألواح ولا كلام، وينكرون المعراج نهائيا، كما ينكرون صفات الله التى جاءت فى القرآن، حتى قال فيهم ابن المبارك أنا لنحكى قول اليهود ولا نحكى قول الجهمية، ومع هذا عندما قتل زعيمهم (الجهم بن صفوان) ووزيره (الجعد بن درهم) غسلوهم وكفنوهم وصلوا عليهم ودفنوهم فى مقابر المسلمين ولم يجروا عليهم حكم الردة ولا الزندقة ولا الكفر أو الإشراك أو الوثنية، مع أن هؤلاء وسابقوهم هم أصول الفرق الاثنتين والسبعين التى جاءت فى الحديث المشهور. إن كان صحيحاً .

وقد نقل ابن تيميه أن الإمام أحمد بن حنبل لم يكفر أهل هذه الفرق بل صلى (أحمد) رضى الله عنه خلف بعض الجهمية وبعض القدرية وأن أكبر ما توصف به كل تلك الفرق عند ابن تيميه هو الفسق" انتهى[١] .

أما حروب الردة فى عهد أبى بكر – كما يطلق عليها – فمعروف أن معظم المرتدين كانوا يؤمنون بالله ويصلون ويصومون، ولكنهم رفضوا الزكاة ورفضوا السلطة المركزية للدولة المتمثلة فى خلافة أبى بكر فهى تمرد عسكرى على الدولة، كما كانت ردة القبائل الأخرى ثورة على الدولة الإسلامية، فهى حروب اقتصادية أو سياسية وليست حروباً فكرية أو عقيدية

رابعاً: تقرير الإسلام لمبدأ "الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر" ..

أبرز الإسلام مبدأ جديداً فى مجال العمل العام هو "الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر" واعتبر أن هذا الإجراء ما يميز الأمة الإسلامية على الأمم الأخرى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ﴾. وقدمه القرآن فى بعض آياته على الصلاة والزكاة فقال ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. {٧١ التوبة} ..

يُعد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر – أحد ضمانات العلمانية لأنه ليس إلا ترخيصاً بحرية الفكر وتأكيداً عليها إيجابا وسلبا – ولو انعدم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لكان من المحتمل دخول منكرات لا عداد لها دون احتجاج أو نقد ولكان من الممكن لبعضها القضاء على الحرية نفسها، ولكان من الممكن أيضاً أن لا يوجد المعروف، أو أن تكون ممارسته ممارسة سيئة دون أن يوجد من يصحح السقيم ويستكمل الناقص أو تكون القاعدة فى هذا المجتمع هى "الانا مالية" "أنا مالى" ..

ولكن إساءة فهم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يمكن أن تجعل منه أداة لوأد العلمانية، أو الحيف عليها لا أن يكون ضمانا لها. عندما يتخذه

---

(١) السلفية المعاصرة إلى أين؟ – مرجع سابق .

أنصار النظرة الأحادية، وأصحاب شعار " **قولاً واحداً** " سلاحاً بتاراً يسلطونه على كل صاحب نظرة مختلفة، وقد لا يتسبب عن هذا شر مستطير ما دام محصوراً فى إطار الفكر (أو اللسان – كما يشير الحديث المشهور"من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الإيمان) ولكن يغلب أن ينتقل من إطار الفكر واللسان إلى مجال اليد والعمل لأن الحديث جعل الأولوية للتغيير باليد، وإنما جعل اللسان والقلب عند عدم الاستطاعة .

لقد جاءت صياغة الحديث الذى يعد عماد هذا التوجيه مختلفة عن صياغة الآيات القرآنية. فهذه الأخيرة تقتصر على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى حين أن الحديث يتضمن تغييراً لا مجرد أمر ونهى وحدد له ثلاث مستويات هى اليد، واللسان والقلب، ولابد لاختلاف هذه الصياغة من مبزر.

فى نظرنا أن تضمن الحديث التغيير باليد **إنما يراد به حالات معينه لا يكون فيها بديل آخر. فإذا وجد أحدنا فرداً يحاول القيام بجريمة ما كأن يشعل ناراً فى بيت أو يضرب حيواناً بقسوة.. أو حتى يحاول الانتحار عندئذ يصبح اللواذ باليد أمراً لا مناص عنه..** أما ما يورده الفقهاء عن سلطة للفرد على آخرين تعطيه حق التأديب كسلطة الأب على الابن والزوج على الزوجة، فهذا ما لا نفضل الخوض فيه تأسيا بالرسول الذى ما ضرب أحداً قط، ولا خادماً .

ونعتقد أن تفسير حديث "من رأى منكم منكراً.." لابد أن يستصحب الآيات العديدة التى حدد الله تعالى للرسل طريقة التبليغ، وضرورة الاقتصار عليه، وأوردناها آنفا والحذر من أن يأسى لرفض المشركين. أو أن يحاول اكتساب الإيمان بمختلف الطرق. فمن غير المعقول أن يتصور أحد من عامة المسلمين أو خاصتهم أنه أكثر غيرة على الإسلام من الرسول، أو أن عليه أن يفعل أكثر مما وجه القرآن رسوله ..

هذه كلها آفاق قد لا يلم بها الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر خاصة إذا لم يكن عميق الخبرة بالنفس الإنسانية، وهى صفة قلما تتوفر لعامة

الناس، وإنما تتوفر لديهم بدلاً منها الحماسة والاندفاع. فهذه الآيات ترسم للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الموقف الأمثل بحيث يُعرف أن دوره ينتهى بمجرد الأداء باللسان أو القلب. أما تطبيق التغيير باليد فلا يكون إلا فى حالات الضرورة المحددة التى أشرنا إليها آنفا، وفى غير هذه الحالات تكون أى محاولة لتغيير المنكر باليد مجافية تماماً لروح الآيات، ولن يكون الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر أكثر حرصاً على الإسلام من الرسول الذى كلفه الله بحمل رسالة الإسلام ولن تكون عاطفته أشد وحرصه على الهداية أعظم، ومع هذا فقد وجهه القرآن ﴿ وَمَا عَلَيْكَ ألا يَزَّكَّى﴾. {٧ عبس}.

فهذه الآيات هى التى تفسر طريقة فهم وتطبيق حديث تغيير المنكر وهى حاكمة عليه، وضابطة له لأن من أعسر الأمور التفرقة ما بين النية الموضوعية الخالصة فى التغيير، وما يمتزج بها امتزاج اللحم والدم من مشاعر شخصية، وانطباعات خاصة ورغبة فى النهى والأمر "والشخط والنتر" وهى تعود إلى الزهو والغرور، وهما من الموبقات، ومحاولة تلبيس المعنى الخاص الثوب العام، وهى صورة من النفاق النفسى الذى يتطرق إلى النفس بأخفى من دبيب النمل ..

خامساً: تقرير الإسلام التعددية ..

من الاتجاهات التى أقرها الإسلام ودعا إليها فى العديد من الآيات القرآنية التعددية التى تعد إحدى خصائص المجتمع العلمانى، وهى ناحية ليست فحسب قد خفيت عن ملاحظة معظم الكتاب الإسلاميين قدامى ومحدثين، بل أيضاً ذهب البعض إلى نقيضها. فرأى أن الإسلام هو دين التوحيد، ومن ثم فإنه يفترض الوحدة فى كل شىء إله واحد، أمة واحدة، مذهب واحد، حزب واحد، قائد واحد الخ... وفاتهم إن الإسلام عندما قرر، وأكد التوحيد لله تعالى فإنه أكد أن هذا التوحيد له وحده، وأن إفراد الله تعالى بالوحدانية يستتبع التعددية فيما عداه، وإلا لاشترك ما عداه معه فى الوحدة وهو يقول "لا شريك له" و"لا إله إلا الله" ومن هنا فإن المجتمع الإسلامى، على ما قد يبدو فى ذلك من مفارقة – هو مجتمع التعددية. وما يستتبعه هذا

من علمانية وقد كان المجتمع الإسلامى الأول الذى قرره الرسول فى وثيقة الموادعة مجتمعاً تعدديا يعتبر أن المهاجرين والأنصار، واليهود المتحالفين مع الأنصار أمة واحدة للمؤمنين دينهم ولليهود دينهم.. وكان يمكن أن يظل مجتمع المدينة كذلك لولاً أن نكث اليهود ..

صحيح أن هذا الاتجاه لم يتبع فى العهود المتأخرة وأن نوعا من التعصب الضيق ببعض المجتمعات الإسلامية فرض صورة من "الوحدة" ليس فحسب ما بين المسلمين وغيرهم، بل ما بين المسلمين أنفسهم فاستقلت الشيعة عن السُنة، ثم تقوقعت المذاهب كل فى قوقعته، ولكن هذا كله لا يحسب على الإسلام لأنه من آثار الفساد الذى تطرق إلى المجتمع الإسلامى وشوه كل شىء: التوحيد، الفقه، الحكم، المرأة الخ ...

أما إذا حكمنا على المجتمع الإسلامى بحكم القرآن. فإن القرآن يقول بصريح العبـــارة ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْـــرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِـــعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾. {٤٨ المائدة} ..

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ(١١٨) إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾. {١١٩ هود} ..

ويلحظ أن المجتمع الإسلامى المتأخر، وإن لم يتبع التعددية تماماً، إلا أنه لم يضق بوجود جاليات غير إسلامية، فقد سمح لها بالوجود وأعطاها الحرية فيما يتعلق بشرعها وقدم لها الحماية لقاء رسم يعد زهيدا هو "الجزية" التى كان النساء والمسنون والأطفال يعفون منها. وهذه الصورة تعد نادرة "ومتقدمة" بالنسبة لما كانت عليه أوروبا فى هذه العصور، إذ كانت ترفض تماماً التعددية وقد استأصلت الإسلام من كل المناطق التى فتحتها، بل إنها لم تسمح بالتعددية المذهبية داخل المسيحية نفسها، والحروب بين الكاثوليك والبروتستانت غطت التاريخ الوسيط لأوربا، ولا يزال بعضها حيا وموجوداً فى أيرلندا .

وهذا السماح من المجتمعات الإسلامية يعود إلى ما قرره القرآن من ضرورة إيمان المسلمين بكل الشرائع والأديان والأنبياء، كما نصت على ذلك آيات عديدة .

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. {٦٢ البقرة} ..

- ﴿وَقَالَتْ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتْ النَّصَارَى لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾. {١١٣ البقرة} ..

- ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾. {٨٤ آل عمران} ..

- ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ(١١٨) إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾. {١١٩ هود} ..

- ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلْ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ(٢٤) قُلْ لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾. {٢٥ سبأ} ..

- ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ(١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ(٢) وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ(٣) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ(٤) وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ(٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾. {٦ الكافرون} ..

وتحدث القرآن الكريم عن اليهود والنصارى حديثاً منصفاً، يمثل الحياد والنزاهة التامة مما يعدُّ درساً فى الموضوعية والإنصاف، ففى الوقت الذى ندد فيه بتعصب وإصرار اليهود، فإنه أعترف بما لدى البعض منهم من فضائل فقال ..

▪ ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. {٧٥ آل عمران} ..

▪ ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ(١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ(١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾. {١١٥ آل عمران} .

▪ ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلا أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾. {١٩٩ آل عمران} ..

▪ ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ(٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنْ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنْ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ . {٨٣ المائدة} ..

واستغرب القرآن أن يدعوا اليهود الرسول ليحكم بينهم فقال :

▪ ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمْ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ . {٤٣ المائدة} ..

وتحدث عن الإنجيل ..

▪ ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾. {٤٦ المائدة} ..

▪ ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ﴾ . {٤٧ المائدة} ..

وكان توجيه القرآن للحكم على الآخرين أولهم، أن يترك ذلك لله. وأنها أمم قد خلت لها ما كسبت "ولا تسألون عما كانوا يفعلون". "وأن الله أعلم بمن يضل عن سبيله" ...

وقال بصريح العبارة ..

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيـنَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَـدَيْتُمْ﴾ [1]. {١٠٥ المائدة} ..
- ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ {١٣٤ البقرة} ..
- ﴿قُلْ لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾. {٢٥ سبأ} ..
- ﴿إِنَّ رَبَّـكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَـدَى﴾. {٣٠ النجم}..
- ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ . {٧ القلم} ..

سادساً مبدأ البراءة الأصلية :

يأخذ الإسلام بمبدأ على أعظم جانب من الأهمية والخطورة هو مبدأ "البراءة الأصلية" والبراءة الأصلية من أجمل وأثمن التعبيرات فى الفكر الإسلامى، وأهميتها لا تقتصر على جانب "الحلال والحرام" إذ أنها تعبر عن فهم الإسلام للإنسان وللطبيعة البشرية، وطبقا لها، فالإنسان أصلاً برىء ولكن يمكن أن ينزلق إلى الخطأ إذا تهيأت دواعى ذلك. وقصة آدم – كما قدمها القرآن – تصور ذلك، فقد خلق الله تعالى آدم ونفث فيه من روحه، وكرمه ووهبه العلم والوجدان، وأسكنه الجنة، وآنس وحشته بحواء فعاش فى البراءة الأصلية ردحاً، حتى خدعه الشيطان فغوى، ثم أدرك خطأه فتاب الله عليه، وسواء كانت توبته تلك تعود إلى الكلمات التى تلقاها من الله ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾. أم أنه تاب لأن البراءة الأصلية مكنته من أن يتبين "الخطأ" فتاب، وعندئذ أنزل الله عليه كلماته، فإن

---

(١) لقد التبس معنى هذه الآية على بعض الصحابة وظنوا أنها تنسخ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حتى بين لهم الرسول أنها عن النصارى واليهود، ويبدو أن هذا التفسير لم يصل إلى جميع الصحابة فوجد فى عهد أبى بكر من يقع فى اللبس حتى بينها لهم (انظر مسند الإمام أحمد بن حنبل) .. (الفتح الربانى) ج١٨ ص ١٣٤ .

الأمر فى النهاية واحد: عودة إلى البراءة، وإقلاع عن الخطأ، لأن البراءة هى الأصل، والخطأ عارض .

وتعزّز السُنة هذه الفكرة التى عرضها القرآن، وتجلى أصلا لها قبل أن يتوصل الفقهاء إلى تعبير "البراءة الأصلية" فتحدث الرسول عن "**الفطرة**" وهى كلمة لا تقل جمالاً وإيحاءً عن تعبير "البراءة الأصلية"، وهو يقرر أن الإسلام دين الفطرة، وأن كل واحد يولد على الفطرة، ثم يتولى أبواه تحويله إلى دينهما، يمجّسانه أو يهوّدانه ! .

والسُنة لم تبتكر لفظة الفطرة، فهى تعبير قرآنى.. وإنما هى فسّرت ما جاء فى القرآن عندما تحدث عن "فطرة الله التى فطر الناس عليها" .

وهذا التكييف لطبيعة الإنسان يعطيه حرية المبادأة ويغرُس الثقة فى نفسه، ولا يجعل عليه رقابة أو وصاية كهنوتية، وهذه كلها عوامل تنهض بالفرد، وتنهض بالمجتمع، وتستتبع الحرية، وتفترض عدم القيود .

فالإنسان فى الإسلام برئ يمكن أن يخطئ. ومناط البراءة فى الإسلام هو الفطرة .

* * *

وتستتبع البراءة الأصلية أن يكون الأصل فى الأشياء الإباحة، وأن يعود الاستثناء من هذا إلى أسباب طارئة ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ فالتحريم فى الإسلام استثناء، والأصل هو الحل. ومن ثم عنى الإسلام بتحديد التحريم تاركاً الأصل الذى هو الحل.. والحل، أو الحلال فى التعبيرات الإسلامية تماثل تعبير الحرية فى الكتابات الحديثة .

وتتبع الآيات القرآنية يظهر بجلاء أن القرآن يضيق من دائرة الحرام، وأنه يخص الله تعالى وحده بالتحريم والتحليل، ويندد بالذين يعطون لأنفسهم هذا الحق ويضيقون من سعة الحل الذى أراده الله تعالى للناس ويعتبره افتراءً وكذبا على الله ..

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾. {١٠٣ المائدة} ..

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾. {٣٢ الأعراف} ..

﴿وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمْ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ﴾. {١١٦ النحل}

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً قُلْ أَاللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾. {٥٩ يونس} ..

وهناك آيات أخرى عديدة تدعو الناس للاستمساك بالحلال الطيب، وأن يأكلوا ويشربوا ولا يسرفوا، وأن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد الخ ...

وفى سبيل تضييق دائرة الحرام، وسد الأبواب على التحريم، حرم القرآن السؤال الذى يفضى إلى مزيد من التحريم فقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ(١٠١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾. {١٠٢ المائدة} ..

وتؤكد السُنة هذا فإن الرسول يقول "ذرونى ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فانتهوا وإذا أمرتكم بشيء فخذوا منه ما استطعتم" .

وقال "ما أحل الله فى كتابه فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو، فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى شيئاً، وما كان ربك نسيا".. فما أجمل هذا الحديث وما أروعه فى معناه ومبناه وما أرق تعبيره "فاقبلوا من الله عافيته" .

وقد تكرر هذا الحديث بمعناه ومبناه مرة أخرى "الحلال ما أحل الله فى كتابه والحرام ما حرم فى كتابه، وما سكت عنه فهو مما عفا لكم".. ولاحظ

كيف أكد الرسول – وهو المفوض من الله تعالى فى التبليغ والبيان – أن الحرام والحلال هو ما جاء فى كتاب الله .

ومرة ثالثة قال "إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدوداً فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان، فلا تبحثوا عنها" .

وقال "إن أعظم المسلمين جرما، من سأل عن شيء لم يحرم على المسلمين فحرّم عليهم لأجل مسألته" أخرجه البخارى ومسلم .

وأخيراً: الإسلام دين وأمة
وليس ديناً ودولة ...

لعل أقوى ما يجمع بين العلمانية والإسلام هو ما انتهى إليه اجتهادنا أخيراً من إن الإسلام دين وأمة وليس دينا ودولة، فالمعروف أن حقيقة العلمانية هي الفصل ما بين الدولة والدين، وهذا الاجتهاد الأخير يتلاقى مع جوهر العلمانية .

وقد بنينا هذا الاجتهاد على أساس مبدأ محورى هو أن السلطة تفسد الأيدلوجيا. ولما كانت خصيصة الدولة هى السلطة، فإنها ما أن تعالج الإسلام حتى تفسده. وقد حدث هذا عندما حولت الخلافة الراشدة إلى مُلك عضوض فيه كل ما فى الملك من سوءات .

وهذا أمر ليس مقصوراً على الإسلام، بل هو يشمل كل القيم كالمسيحية، والاشتراكية، وفى الكتاب الذى أصدرناه عن هذا الموضوع عرضنا فى فصل مسهب كيف حولت السلطة المسيحية وهى دين الحب والسماحة إلى محكمة تفتيش رهيبة. كما خصصنا فصلاً أبرزنا فيه كيف أن السلطة حولت الاشتراكية، وهى أمل العمال إلى نقمة على العمال وإلى دولة شمولية هى التى وضعت أسس الحكم الشمولى وتتلمذ فيها هتلر وموسولينى، فهو مبدأ عام. وقد كانت العلمانية محقة عندما ارتأت الفصل بين الدين والدولة .

ولكن ليس معنى هذا أن الدولة فى أمة مسلمة تكون علمانية. لأن عدداً كبيراً من العوامل تفرض نفسها، وتجعل موقف الدولة يختلف نسبياً عما هو الحال فى الدول فى الغرب .

فلا شك فى أن الإسلام وضع أصولاً اقتصادية وسياسة واجتماعية لصلاح المجتمع. ولكنه لم يتقدم بها إلى الدولة التى لم يذكرها القرآن ولكن إلى الأمة التى ذكرها فى قرابة خمسين موضعاً .

ففى السياسة حرم الظلم والطغيان وأمر بالعدل والشورى وفى الاقتصاد وحرم الربا والاكتناز والاستغلال وأمر بالزكاة وفى المجتمع أفترض المساواة، ولا فخر لعربى على عجمى إلا بالتقوى وأمثال هذه كثير .

ومن المسلم به إن الدولة الديمقراطية هى التى تتجاوب مع شعبها وتحكم بإرادة جمهورها، فإذا كان هذا الشعب مسلماً فيجب أن يكون هناك تجاوب وتعاطف خاصة وأن الإسلام يشغل منزلة مكينة فى نفوس المؤمنين به ويصبح من غير المتصور أن تقف الدولة موقفا حياديا. فمع أن الدولة لا يجوز لها أن تحمل صفة الإسلام أو تمارس مهاماً إسلامية، إلا إنها تظل مع هذا غير علمانية. لأنها لا يمكن أن تكون محايدة إزاء عواطف الشعب .

وإنما استطاعت الدولة فى الغرب أن تكون غير علمانية لأن الدين لا يشغل منزلة عميقة فى نفوس الأوربيين الآن ولأن المسيحية لم تعن بشئون الحياة الدنيا، أو تضع خطوطاً عريضة كالتى وضعها الإسلام عندما أوجب الزكاة وعندما ندد بالظلم والطغيان وعندما أوجب الحكم بالعدل وعندما حرم الربا الخ... بل أكثر من هذا يمكن أن نقول إن الديانة العميقة التى هى فى جذر المجتمع الأوروبى/ الأمريكى هى الوثنية التى كانت عليها الحضارة اليونانية/ الرومانية وهى أعظم مكونات الحضارة الحديثة. فالدولة فى أوروبا، وإن كانت علمانية، إلا إنها تحكم بالدين الذى هو فى جذر إيمان الأوروبيين وهو تأليه الإنسان. ومن أجل هذا كانت متسقة مع نفسية شعوبها. وأخيراً فيمكن القول إن الدولة فى أوروبا وأمريكا متعاطفة مع الكنيسة وإن كانت مستقلة عنها. لأن الاستقلال لا يعنى الحياد. والمحاولات التى تناصر

فيها الدولة فى أوروبا وأمريكا الكنائس عديدة... بل أكثر من هذا إنها تقف موقفا عدائيا – وليس محايداً – من دعوات أو أديان أخرى وأنها تناصر قضية الصهيونية حتى على حساب حرية الفكر، وهى حجر الزاوية فى الدولة الديمقراطية العلمانية .

إن بعض الكتاب يريد أن يعطينا انطباعاً أن الدولة فى الغرب علمانية تماماً مائة فى المائة، ولكن الحقيقة هى ما أشرنا إليه .

ومن ثم فنحن لا نستطيع أن نطلق على الدولة – لأمة مسلمة – وصف العلمانية. ولكن "المدنية" فدولة الأمة الإسلامية دولة مدنية لا تدعى الإسلام، ولا تمارس مهاماً إسلامية. ويكون جوهر دورها هو المهام المدنية من تعليم ورعاية وخدمة.. ونهضة بالاقتصاد والتنمية، وهى لا يمكن أن تتجافى عن إرادة شعبها وعندما يريد شعبها تطبيق توجيهات إسلامية معينة فعلينا عندئذ أن تتصاع لإرادة شعبها. لأن الأمة – وليس الدولة – هى مصدر السلطات .

ولأن هذا هو المسلك الديمقراطى الذى لا مناص منه .

إن تعبير الدولة المدنية يحل لنا الإشكال بين العلمانية التى تشئ بموقف محايد من الدين، وبين الدولة الدينية التى تسخر الدنيا للدين. وفى الوقت نفسه فإنه لا يحيف على المبدأ الأساسى فى الديمقراطية وهو أن تكون الأمة – وليس الدولة – هى مصدر السلطات .

إذا كان الأمر كذلك فقد يكون من الخير أن يخلص الدستور من النص على "الإسلام دين الدولة" أو أن مبادئ الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسى للتشريع لأن هذه يمكن أن تفتات على طبيعة "المدنية" المطلوبة للدولة، وأنها يمكن أن تستغل من قبل فئات إسلامية تفسر الإسلام تفسيراً يفرض على الدولة ما يعارض حرية العقيدة، وما يخالف مقتضيات التطور والمصلحة العامة فضلاً عن أنه يمكن أن يثير حساسية الأقباط. وهذه كلها مخاطر حقيقية يمكن أن تشل "مدنية" الدولة. وقد نشأت عن الوهم العميق فى الفكر الإسلامى عن أن الدولة هى حامية العقيدة. وهو أمر لا ينفرد به المسلمون،

فقد كان الأوروبيون يؤمنون به أيضاً، ونجده فى بعض التعبيرات التى تجعل الملك (أو الملكة) حاميا للعقيدة. ولكن الأوروبيين تعلموا درس التطور فى حين لا يزال المسلمون فى وهمهم القديم .

وقد أوضحنا فى كتابنا "الإسلام دين وأمة وليس ديناً ودولة" أن من الخير للإسلام أن تكف الدولة يدها عن دعوى حمايته، لأنها لن تحقق من هذا إلا شراً مستطيراً .

مدى علمانية الإسلام :

هل معنى ما تقدم أن الإسلام علمانى كما هو الحال فى مجتمعات أوروبا العلمانية .

الإسلام يتفق مع العلمانية فى الفصل ما بين السلطة (أو الحكومة) والدين. ورغم أن هذا يمثل شجا فى حلق الإسلاميين، فإنه الحقيقة لأن ما ذهبت إليه الآراء الحديثة من الفصل ما بين الدين والحكومة هو الأمر السليم الذى لا يرفضه الإسلام الذى يقوم أول ما يقوم على الحكمة والموعظة الحسنة، والذى يجد قاعدته الحقيقية فى "الإيمان" ولا يمكن أن يفرض الإيمان على القلوب، ولا مكان للإيمان وسط أوزار السلطة وطبيعتها المفسدة وقيامها على الإرهاب آونة والاصطناع آونة أخرى، وإنما مكانه الطبيعى والدائم هو "الأمة" .

ولكن للعلمانية جانب يرفضه الإسلام تماماً ولا علاقة له بالدولة. ذلك أن العلمانية الأوروبية تعنى فى بعض الحالات "الدنيوية" وهى فيما نرى الترجمة التى تحمل روح العلمانية أى الاقتصار على الدنيا الذى يستتبع إغفال الحياة الآخرة والوقوف منها موقف الجحود أو عدم الاكتراث وهو موقف لا يعنى فى حالة الجحود إلا الكفر باليوم الآخر، وإلى حد ما الكفر بالله بحيث ينطبق على أصحابه ما ذكره القرآن عن الكافرين. ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلا يَظُنُّونَ﴾. {٢٤ الجاثية}.. ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾. {٤٥ الزمر} ..

فالعلمانية بمعنى الدنيوية، أى الاقتصار على الحياة الدنيا تخالف – أو قل – تضاد الإسلام الذى يؤمن بالحياة الآخرة، ويؤمن بالحساب والعقاب والثواب الخ... ولعل هذه الحقيقة هى ما يجعلنا نقول إن الإسلام له طابع "مدنى" وأنه يتفق مع العلمانية فى الفصل ما بين الحكومة والدين، ولكنه يرفض العلمانية عندما يعنى ذلك عدم الاعتراف بالحياة الآخرة ومن باب أولى بالله تعالى ..

ولا يخفى على أحد أن القيم الدينية سواء كانت مسيحية أو إسلامية لا تتفق مع "دنيوية" العلمانية، فلا جدال فى أن هناك اختلافا بيّنا بين مجتمع لا يفرق أفراده بين المدنس والمقدس ولا يستهدفون إلا مصالحهم ويعملون لتحقيق أقصى درجة من الاستمتاع الطليق، من جانب، وقيم تفرق بين الخير والشر، وتلزم الإنسان درجة من الانضباط وتكبح جماح الشهوات والمطالب الذاتية، والنقطة المهمة هى أنه ما ظلت الأديان تدعو بالحكمة والموعظة الحسنة، وتترك ما لقيصر لقيصر، فإن دعوتها تكون نافعة جدا لإيجاد نوع من التوازن ولكبح جماح الشهوات الضارية، والحبل المطلق على غاربه، وقد يصبح من الممكن معايشة "جدلية" بين العلمانية والأديان تقوم على أساس تكامل لا يتحقق إلا بوجود الأمر ونقيضه .

وهنا أيضاً نجد نوعاً من التفرقة بين الإسلام والمسيحية قد يمثله موقفهما من العلاقات الجنسية، فالمسيحية متأثرة بفكر ومزاج القديس بول المؤسس العملى للمسيحية، عزفت عن هذه العلاقات ولم تر فيها إلا شهوة الجسد واللحم والدم، ولكنها لما كانت غريزة مستحكمة، فإن العزوف عنها كان يعنى "التحرق" ولهذا تقبل القديس بول "التزوج" وضيقه فى أقل الحدود – زوجة واحدة وتحريم الطلاق الخ...

ولكن الإسلام كان أكثر علمانية فرأى فيها غريزة أراد الله بها حفظ النوع، وأن صاحبها إذا وضعها موضعها المشروع أثيب عليها – كما أنه إذا انحرف بها عوقب عليها. فالقضية فى الإسلام قضية "تنظيم" ومن هذا المنطق ضيق التعدد الذى كان سائداً بين العرب دون أن يحرمه كلية، ولكنه

فى الوقت نفسه، اشترط شروطاً صعبة كما جعل عقد الزواج يقوم على إيجاب وقبول ويمكن أن ينتهى إذا فقد ذلك أى عندما يصر الزوج أو الزوجة على الطلاق .

ولعله كان أكثر إتساقا مع الطبيعة البشرية، فقد حرمت المسيحية تعدد الزيجات والطلاق، لكى تجد نفسها أمام تعدد "العلاقات" غير المشروعة التى حلت محل الزيجات المشروعة فى المجتمع الإسلامى، ولكى تقر النظم أنواعاً متعددة من الطلاق برغم تحريم الكنيسة ذلك .

ويتفق الإسلام مع العلمانية فى أنه يرفض الدولة الثيولوجية ويجعل الحكم عقدا سياسياً فكأن الإسلام حقق العقد الاجتماعى الذى تصوره جان جاك روسو.. قبله بقرون طويلة .

والاستثناء الوحيد من هذا هو ما ذهب إليه الشيعة الذين رأوا أن الإمامة بالنص وأعطوا أئمتهم حصانة وكونوا "مؤسسة دينية" لها مواردها الخاصة تعد هى "المرجعية" وهذا كله يتنافى مع ما ذهب إليه جمهور المسلمين لأنه يمكن أن يؤدى إلى الدولة "الثيولوجية" التى يصعب فى وجودها ظهور علمانية وقد ظهر التضاد من وقت بعيد، وكان مما دفع ابن تيميه إلى تأليف كتابه عن السياسة الشرعية الرد على ابن المطهر الحلى من الشيعة الأمامية .

ورفض جمهور المسلمين وجماعتهم لما ذهب إليه الشيعة هو رفض للدولة الثيولوجية .

على أن الدولة الشيعية نفسها عندما ظهرت فى العصر الحديث بانتصار ثورة الإمام الخمينى تتعرض الآن لتنقيح يخلصها من كثير من رواسبها القديمة ويوائم بينها وبين حياة العصر .

وليس الحكم وحده هو الذى يقوم على التعاقد. إن معظم النشاط الاقتصادى يقوم عليه، بل إن الزواج – رغم خصوصيته – هو فى جوهره عقد مدنى يقوم على إيجاب وقبول وكل الشروط الأخرى تكميلية مع استبعاد أن يتم فى كنيسة وعلى يد كاهن .

ويعطى الإسلام الدنيا حظها ﴿وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا﴾. ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنْ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾. {٣٢ الأعراف}.. وقد يذكر هنا عزوف الإسلام عن الرهبانية والزهد فى طيبات الحياة التى أحلها الله، ولكن الإسلام لا يقتصر – كالعلمانية على الدنيا وإنما يضم إليها الآخرة ويحاول الجمع بينهما – اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، وأعمل لأخرتك كأنك تموت غدا – وليس ثمة تناقض إلا فيما يمكن أن يؤدى إليه الشطط – وهذا الشطط إذا كان فى السلوك فإن الإسلام أبدع آليات لإصلاحه كالتوبة والاستغفار والمقاصة – أى عمل الحسنات التى تجُب السيئات. وإذا كان يمس المجتمع فهناك عقوبات أريد بها الردع، وإذا كانت تدخل فى الظلم والاستغلال فإن الإسلام يقيمها على أساس العدل ...

من هذا العرض نرى أن هناك نقاط ائتلاف بين الإسلام والعلمانية خاصة فيما يتعلق بعلمانية الحكم ..

ثلاثة جوانب يجب أن توضع فى التقدير

هناك بعد الدراسة الموضوعية لكل من الإسلام والعلمانية ثلاثة جوانب يجب أن توضع فى الاعتبار يختص أولاها بمدى نقاء العلمانية الأوروبية، ويختص الثانى بطبيعة هذه البلاد، أعنى مصر خاصة والمنطقة العربية عامة، ويختص الثالث بنتائج تطبيق العلمانية فى المجتمع الأوربى فى العصر الحديث .

أ. مدى نقاء العلمانية الأوروبية :

تظهر الدراسة العميقة للمجتمع الأوروبى الحديث أن هذا المجتمع رفض الدين السماوى واصطنع دينا أرضياً، وكفر بالله الذى جاءت به المسيحية والإسلام وآمن بآلهة، جاءت بها السينما ونظم الحكم والفنون والرياضة فهو ليس مجتمعاً علمانيا خالصا وحقيقيا، ولكنه علمانى بالنسبة للأديان القديمة، أما موقفه أمام القوى الجديدة الصاعدة فى سمائه فهو موقف

المؤمن بها، العابد لها، ذلك أن الإنسان لما لم يكن بطبيعته إلها، ولا خالقا، لنفسه أو لما فى الأرض من أشجار وأنهار ومعادن الخ... وإنما هو متصرف فيها مستخلف عليها، فقد كان لابد وأن يوجد إلها، بعد أن رفض الإله الذى تقدمه له الأديان يستوى فى ذلك المجتمع القديم والمجتمع الحديث ففى اليونان أوجد الشعراء وأبدعوا تلك المنظومة من آلهة "الأوليمب" التى دارت حولها الأساطير والآداب وأورثت أوربا الحديثة أسماءها، وفى الرومان أصبح الأباطرة آلهة، وتولى مجلس الشيوخ "تعيين" من يؤلهه من عظماء الرومان وقبل هذين امتلأت أرض مصر بالآلهة من كل نوع: نيل وشمس، وحيوان الخ... ولم يكن لهذا كله من داع لولا أن الإحساس بالحاجة إلى إله يكاد يكون فطريا ولعل القرآن قد أشار إلى ذلك بطريقته الرمزية. ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾. {١٧٢ الأعراف}..

وهكذا فلم يكد المجتمع الغربى العلمانى يرفض تدخل الدين فى المجتمع حتى فتح الباب على مصراعيه لآلهة من صميم هذا المجتمع مثل ملكات الجمال أو نجوم السينما "عندما مات رودلف فالنتينو انتحرت العديد من النساء فى أربعة أركان العالم الحديث" وما أكثر ما توجد صور هؤلاء الأبطال والبطلات معلقة فى بيوت الشبان والشابات أو حتى فى محافظهم، وكذلك أبطال وبطلات الرياضة وكرة القدم والتنس الذين يحتازون الملايين لقاء مبارياتهم التى تشغل شاشات التليفزيون وتسمر الناس أمامهم، ويصبح لهم من الشهرة أكثر مما للعلماء أو الوزراء أو حتى رئيس الدولة، وفى المجتمعات الاشتراكية التى ثارت على هذه الآلهة "البورجوازية" وجد آلهة من نوع جديد، وجد لينين الذى يدفن فى مدفن على غرار أهرام المصريين وحنط مثلهم ويقف الأطفال المساكين فى زمهرير الشتاء صفوفا لكى يلقوا نظرة عليه. كما ظفر ستالين، وماوتسى تونج وهوشى منه بمثل هذه المنزلة، وما أكثر الملايين من الشبان والشابات الصينيين المهوسين بالكتاب الأحمر الذى وضعه ماوتسى تونج وظفر بما لم تظفر به الأناجيل وما أضخم التماثيل

التى أقيمت لهؤلاء الحكام الطغاة مما تصغر أمامها تماثيل رمسيس الثانى وغيره من ملوك الفراعنة. لقد انتفت فى هذه المجتمعات "عبادة الله" الذى اعتبر إلها رجعيا أوجدته مظالم الرأسمالية وقامت "عبادة الفرد" وهى عبادة لها إكليروسها وكهنتها، وليس هناك فرق بين المكتب السياسى "البوليتبرو" وكرادلة البابا فى روما أو آيات الله العظمى فى "قم" .

هذه كلها صور لا تختلف عن الإيمان الدينى الذى افترض أنه يناقض العلمانية، وقد وجد وازدهر فى كل بيئة علمانية رأسمالية أو اشتراكية ولهذه الآلهة جنتها ونارها، والخلاف أنهما فى الحياة الدنيا وليسا فى الآخرة، وقد سعد بهذه الجنة كل آلهة العلمانية من نجوم سينما ورياضة، وملكات جمال.. وحكام يهيمنون على المصاير كما شقى بنار هذه الآلهة جماهير العمال الذين عاشوا فى جحيم الاستغلال الرأسمالى قبل أن يتوصلوا إلى تكوين نقاباتهم كما زجت زبانية الحكام فى روسيا الشيوعية وألمانيا النازية بالجماهير إلى السجون أو معسكرات للعمل سخرة فى ظل ظروف وبطريقة "جهنمية" أسوأ من سخرة الرومان القدامى .

وهكذا يتضح أن المجتمع الغربى الحديث إذا كان قد نبذ المسيحية وراء ظهره، فإنه استقبل بوجه آلهة جدد يملكون السعادة والتعاسة، الجنة والنار، وتتقدم إليهم الجماهير بالعبادة، حتى ولو كانوا من إبداع المجتمع نفسه وأخذوا الطابع الدنيوى وأن هذا المجتمع أجلس فى حضن العلمانية ديانته الخاصة .

على أن نبذ المجتمع الأوروبى للمسيحية وأخذه بالعلمانية لا يؤخذ على علاته لسببين: الأول: أن المجتمع الأوروبى لم يخل أبداً من ظهور نحل وملل وشيعة مسيحية مختلفة. إن الرواد الذين استكشفوا أمريكا وسكنوها إنما كانوا من إحدى هذه الشيع التى هاجرت إلى أمريكا فراراً من الاضطهاد ولكى تقيم "صهيون" جديدة، وكان هؤلاء البيوريتان من أشد الشيع المسيحية تشدداً كما أدى انتشار البروتستانتية فى ألمانيا إلى انتعاش المسيحية وظهور جماعات وهيئات وشيع دينية، بل إلى أحزاب سياسية مسيحية .

ومن هنا فدعوى نبذ المسيحية والأخذ بالعلمانية يجب أن لا تؤخذ على علاتها .

والسبب الثاني وهو الأكثر تأثيراً وخطورة هو أن المسيحية احتفظت بالعهد القديم – التوراة – وجمعته إلى الأناجيل.. وقد تأثر المجتمع الأوربى بالتوراة تأثراً عميقاً لأن التوراة فى حقيقتها "ميثولوجيا" تحفل بأخبار حروب، وآلهة، وملوك، ودسائس ومكايد، وقصص غرامية وصور من الابتذال الجنسي والشهوى. وكانت الميثولوجيا اليونانية قد أثرت فى النفسية الأوربية، وجعلتها مهيأة لتقبل الميثولوجيا العبرية. وكان كل شعراء وكتاب وفنانى، بل وسادة وقادة أوربا، ممن تأثر بروايات التوراة ومست شغاف قلوبهم حوادثها الدامية، وحروبها وصراعاتها وغرامياتها الخ... وكان هذا كله فى أصل التعاطف مع الصهيونية والعمل بأن تحتل الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير الفرات. كما نصت التوراة على ذلك كان لويد جورج رئيس الوزارة البريطانى وبلفور كما كان الرئيس ولسن عارفين بهذا الوعد ومتقبلين له فأى علمانية تقيم دولة على أساس "وعد" مزعوم من إله اليهود لإبراهيم ولنسله عبر ألوف السنين .

ونجد آخر تأثير للميثولوجيا العبرية (كما أطلقنا على التوراة فى كتابنا الإسلام دين وأمة وليس ديناً ودولة) فى الولايات المتحدة ظهور أصولية مسيحية/ يهودية تؤمن أن من الضرورى أن يسكن اليهود فلسطين حتى يتسنى عودة السيد المسيح وقد كان الرؤساء الأربعة الأخيرون للولايات المتحدة من المؤمنين بهذه النزعة، وتأييد الولايات المتحدة لإسرائيل وهى الدولة العنصرية التى تقوم على أساس دينى – هو أكبر دليل على وهن العلمانية الأمريكية .

وفى فرنسا وهى دولة الحريات وبلد الثورة الفرنسية لم تأنف الحكومة من أن تصدر قانونا يمنع أى معالجة لواقعة "المحرقة" النازية التى التهمت ستة ملايين يهودى وحاكمت، وحكمت على روجيه جارودى وهو مفكر وزعيم بارز فى المجتمع الفرنسى لأنه اقتحم هذا "التابو" المقدس .

ب. الطبيعة الخاصة للمنطقة العربية :

على دعاة العلمانية أن يتعرفوا تماما على الطبيعة الإيمانية لمصر وللمنطقة العربية – وآثار ذلك على تقبل واستساغة العلمانية، ففى هذه البلاد ظهر الأنبياء أولو العزم – وقاموا برسالاتهم التى حملها المؤمنون بها إلى بقية شعوب وبلاد العالم. وفى هذه البلاد – وبوجه خاص مصر – ومنذ أن بدأت تاريخها، كان الدين هو أبرز مقومات المجتمع فيها وعنه انبثق التشريع، والحكم والأخلاق، والأعراف، والتقاليد، وهو الذى ترك لنا الكرنك والأهرام والمسلات التى تزدان بها ميادين أوروبا وأمريكا. وفى العهد المسيحى أنجبت الإسكندرية قطبى العقيدة المسيحية آريوس واثناسيوس، وكان الدين هو محور مقاومة مصر القبطية للحكم البيزنطى الذى وإن كان مسيحيا، فإنه اختلف عن نظرية الكنيسة القبطية، وفى المرحلة الإسلامية كسبت مصر – تحت العلم الإسلامى – انتصاراتها على الصليبيين وخلصت بيت المقدس، كما أنقذت الشرق بأسره من الغزو التترى بانتصارها فى معركة عين جالوت .

وفى الحقبة الحديثة – كان شيوخ الأزهر هم قادة المقاومة الشعبية ضد نابليون وكليبر وهم الذين قضوا فعليا سنة ١٨٠٥ على الحكم التركى عندما رفضوا الوالى التركى وقاموا بتوليه محمد على الذى تعهد لهم بالحكم بالشرع والعدل وألبسوه خلعه الولاية .

وظل الأزهر منبرا للدعوة الوطنية فى ثورة ١٩١٩، ومن على منبره أعلن عبد الناصر استمرار الكفاح غداة مؤامرة ١٩٥٦، وما أن تحين أوقات الصلاة حتى يقطع التليفزيون إرساله ويعرض الآذان مشفوعا بحديث نبوى وعندما يحل رمضان تأخذ الحياة شكلاً يتفق معه، أما الأعياد فهى أصلا إسلامية (عيد الفطر وعيد الأضحى، ميلاد النبى، السُنة الهجرة الخ...) ويحدث هذا فى ظل حكومات ليس لها توجه إسلامى، بل لعلها تعزف عنه، ولكنها اضطرت لانتهاجه تحت ضغط الرأى العام وللإبقاء على نفسها واكتساب شعبية .

وقد كان أعلام ورواد النهضة أو – كما يقولون – التنوير – من أبناء الأزهر كالشيخ رفاعة رافع الطهطاوى – كما لم يكن على مبارك، أو حتى عرابى – غريبا عن الأزهر، وقد تيقظ المجتمع المصرى على صيحة جمال الدين الأفغانى وعمله الدائب فى مصر ثمان سنوات، وأعقبه تلميذه الأزهرى الشيخ محمد عبده وكان تلميذه سعد زغلول هو رائد الليبرالية المصرية كما قاد حركة تحرير المرأة قاسم أمين وهو تلميذ محمد عبده أيضاً ومعلوم أن طه حسين وعلى عبد الرازق تعلما فى الأزهر .

ولم يحدث أن عارض أو ندد أحد دعاة حركة التنوير بالإسلام بل إنهم كلهم يعلنون أنهم يكنون أعظم التقدير والاحترام للإسلام وللقرآن وللرسول، لا يشذ عن ذلك أبرز دعاة العلمانية المعاصرين المرحوم فرج فوده، أو نصر أبو زيد، وقد نعجب أن نجد إحسان عبد القدوس صاحب مدرسة روزاليوسف الصحفية – يقول "إننى أعيش كمسلم، إن حياتى الخاصة والعامة تجرى تحت تأثير من وحى الإسلام، فإن أصبت فى تصرفاتى، فلأن الإسلام وفقنى أن أصيب، وأن أخطأت فلأننى عجزت عن اتباع ما يفرضه الإسلام على"[1]. وأن نجد الكاتب الروائى الكبير نجيب محفوظ يقول "أهرام ٩٤/١١/١١ فى كلمة فى ندوة مشروع حضارى" ورأيى فى اختصار أن المشروع الحضارى يجب أن يقوم فى أساسه على الإسلام وفى تطوره على الحوار مع سائر الحضارات" وسيرد – فى فصل القومية – كلمات الكتاب المسيحيين والأقباط عن الإسلام، كما يلحظ أيضاً أن عتاولة الماركسية عندما ينقدون الاتجاهات الإسلامية فإنهم يقيمون هذا على أساس أنها لا علاقة لها "بصحيح الإسلام" فكأنهم – بطريقة ما – يدافعون عن الإسلام

فهذه الحقيقة الجذرية تخالف مخالفة تامة ما هو معهود فى أوروبا ليس فحسب من عدم اكتراث بالدين – بل أيضاً المهاجمة العنيفة له سواء فى ذلك الشيوعيون الذين رأوه "أفيون الشعوب" أو علماء الاجتماع والتاريخ الذين يشككون حتى فى وجود المسيح نفسه، فضلاً عن التاريخ المغلق للكنيسة .

---

(١) أنظر عدد صباح الخير – ١ رجب سنة ١٤١١ – ٩١/١/١٧ ص٩ .

ودلالة هذه الحقيقة، والتضاد بين ما هو قائم في المجتمع الأوروبى، مع ما هو قائم فى المجتمع العربى. لا تخفى، ولا يسع أى مفكر أمين أن يتجاهلها .

ج. آثار تطبيق العلمانية فى المجتمع الغربى ..

إن بريق التقدم والثراء والبذخ وشيوع الآداب والفنون وارتفاع مستوى الحياة وشتى مظاهر الجمال تعمى عيون كثير من الباحثين عن رؤية الوجه الآخر للصورة، فهذه المجتمعات كلها بدأت نقطة انطلاقها، وحققت تراكمها بسلب ونهب الشرق تستوى فى ذلك بريطانيا وفرنسا وأسبانيا وهولندا وروسيا القيصرية وألمانيا والولايات المتحدة .

إن بريطانيا وأسبانيا استأصلتا الهنود الحمر الوديعين المسالمين وأبادتهم للاستحواذ على أرضهم، وفرغت هذه الدول أفريقيا من شبابها عندما اقتنصت طوال قرنين من الزمان مائة مليون أفريقى كما تقتنص الحيوانات وزجوا بهم كالحيوانات أيضاً فى سفن بنيت خصيصا لتكون سجونا عائمة، وكان ثلث هذا العدد يهلك خلال الرحلة أو فى السنة الأولى للاستعباد بينما سخر الباقون فى زراعة التبغ وقصب السكر والقطن وكان الرأسماليون قبل أن يظفروا بثروات الشرق وتسخير أبنائه قد استغلوا النساء والأطفال من شعوبهم فى مصانع الغزل والنسيج ومناجم الفحم والحديد ثلاثة أجيال متوالية قبل أن يستطيع العمال تكوين نقابات تحميهم من هذا الاستغلال .

وقامت الحروب بين الدول الأوروبية بعضها بعضا، وضمت حربين عالميين ١٤– ١٩ و٣٩–٤٥ جرت أوروبا شعوب العالم إليها وسالت فيها الدماء أنهارا. وقدر القتلى فيهما بأربعين مليونا فضلاً عما حدث من خراب ودمار .

وفى الفترة المعاصرة تفشت فى المجتمعات الغربية الأزمات الاجتماعية وأخذت شكلاً وبائيا مثل الجريمة المنظمة التى تمد آفاقها لمجالات جديدة لم تكن مألوفة كدعارة الأطفال والشذوذ الجنسى وإشاعة المخدرات، ومثل الفساد السياسي، وهيمنة الصناعات الكبرى والأغنياء على

الانتخابات، والفساد الاقتصادى وسيطرة أجهزة الإعلام وتأثيرها العميق على الشباب وهيمنة الشركات الكبرى الدولية - عابرة القارات على الاقتصاد فى بلادها، وخارج بلادها، والسلطات فى الغرب تقف عاجزة أمام هذا الجموح والانحراف لأنه يستظل بمظلة الحرية، ولأن السلطات أصبحت هى نفسها أسيرة لهذه القوى التى استخدمت الرشوة والضغوط للتأثير على القادة وأجهزة الإعلام للتأثير على الجمهور .

وقد تصور بعض المفكرين العرب المتأثرين بالحضارة الأوروبية أن العلمانية تجمع والأديان تفرق، وأن العلمانية تسامح والأديان تعصب وهذا خطأ فادح. فالعلمانية أدعى للتفرق من الأديان لأنها تلقى الحبل على غاربه لكل فرد أو مجموعة لتقيم كيانا لها وفى أمريكا يمكن لأى دجال أو معتوه أن يجد أنصاراً وأتباعا حتى عندما تكون دعوته القتل والانتحار فالتعددية تصل إلى أقصى مدى لها فى مجتمع العلمانية بينما الأديان حتى لو كانت تفرق فإنها محدودة فلا يوجد فى العالم كله سوى خمسة أديان كبرى .

وبالنسبة للدين فإن ما يحدث هو أن تكون الأغلبية الساحقة فى بلد ما من دين واحد، فلا يكون هناك تفرقة، لأن من المسلم به فى النظم الديمقراطية أن يكون القرار فى النهاية للأغلبية وعلى الأقلية الانصياع له، وقد وقف الإسلام فى وجه جموح الأغلبية وأن تحيف على حقوق الأقليات وكفل لها حرية العقيدة، وحرية أن تتبع نظمها الخاصة فى الزواج والطلاق والمواريث الخ... وحرم على الأغلبية أن تمسها فأصبحت هذه الأقليات محمية بالقرآن وهذا ما يطلق عليه فى الفقه الإسلامى.. "أهل الذمة" وهو تعبير تضيق به بعض الأقليات لأنها تشم منه رائحة تفرقة وتتنسم منه نسمة تمييز فى حين أنه فى حقيقة الحال حماية لهم واعتراف بالحقيقة الواقعة التى يريدون - وهيهات - أن يهربوا منها وهى أنهم أقليه. فلو خلصوا من أن يكونوا أهل الذمة يحميهم القرآن الذى لا يستطيع المسلمون مخالفته - إلى العلمانية وحكم الأغلبية الجائرة لكانوا كالمستجبر من الرمضاء بالنار ولوقع عليهم ما يقع على الأقليات الإسلامية فى الدول الأوروبية التى تدعى العلمانية ولكنها تحكم بالشريعة المسيحية فى قضايا الزواج والطلاق

والميراث وتفرض هذا الحكم قسراً على الأقليات الإسلامية مع مخالفته لعقيدة هذه الأقليات وإن كان تعبير أهل الذمة هو من مخلفات عهد قديم انتهى وطويت مخلفاته، شأنها شأن الجزية، والأنفال والرق الخ ...

فإذا كان فى استلهام الأديان تفرقة بين البشر فستكون تفرقه للعالم كله ما بين خمسة أديان، وبالنسبة للإسلام فإنه يقرر ويؤكد أن علاقة المسلمين بغيرهم علاقة مودة ومسالمة، وهو يعترف بكل الرسل ولا يفرق بين أحد منهم .

أما تهمة التعصب وإلصاقها بالأديان، فإن الإسلام آخر من يمكن أن يمكن أن تلصق به. والتعصب الحقيقى والعميق هو التعصب العنصرى وهو أمر اتصف به المجتمع الأوروبى من أيام اليونان والرومان حتى أيام الاستعمار وحتى الفترة المعاصرة وآخر صورة له هو تعصب الصرب إزاء المسلمين فى سراييفو فهذا التعصب سواء كان مصدره الكنيسة أو العرف هو ما نجده فى أوروبا، وهو سر سكوتها عليه رغم ما اتصف به من وحشية .

لقد كان ما تعرضت له الحضارة الأوروبية الحديثة من أزمات وما وصلت إليه فيها عوامل التدهور قمينا بأن يعصف بأى حضارة أخرى، وما أنقذ الحضارة الأوربية من مصير الحضارة الرومانية المندثرة – هو أن الحرية والعلم قاوما عوامل التحلل والانهيار ومكناها من البقاء والصمود ولكن هذا تم بثمن باهظ قد لا تستطيع دفعه دائما. وهو ما يوضح حاجتها الماسة إلى القيم الدينية التى تعصمها من التدهور والسقوط، ولا يمكن أن تحل محلها قيم أخرى، لأن للقيم الدينية وحدها من المنزلة ومن الصفة الموضوعية والقداسة ما يعطيها قوة ليست لغيرها .

وفى النهاية نجد أنفسنا أمام مفارقة: ففى أوروبا، حيث المسيحية التى تضاد قيمها القيم العلمانية، حدث نوع من المعايشة الجدلية بين العلمانية التى تسود المجتمع، والكنيسة التى تحاول جاهدة أن تكبح الجماح، ولكن دون أن تحقق هذا تماماً لأن قانون الحركة والانطلاق أغلب وأقوى من قانون التوقف والتريث ولم يكن أمام الكنيسة إلا أن ترضى بقدرها، وتقبلت الكنيسة ذلك

لأنها خلال الألف عام التى قضتها على التربة الأوروبية وبالذات "روما" تشربت القيم الأوروبية شيئاً فشيئاً حتى انتهى بها الأمر أن تحمل اسم "الرومانية" وأن تتخذ من روما مقرا لها، كما لو كانت وريثة الحضارة الرومانية .

وفى المجتمع الإسلامى الذى تتقارب فيه القيم الإسلامية من العلمانية حتى وإن تعارضت فى بعض الأصول يحدث شد وجذب وصراع وتقاتل، نتيجة لأن كل فريق يريد أن يستحوذ على الصدارة، ولا يؤمن بمعايشة جدلية تكاملية "لنا الصدر دون العالمين أو القبر" ولا يمكن للعالم الإسلامى أن يعيش هذا الحاضر الشكس طويلاً، ولا هو يملك عدة قرون من الصراع بين الدين والعلمانية كالتى حدثت فى أوروبا طوال القرون الوسطى، وما نتوقعه بحكم دروس التاريخ أن تنتهى هذه المماحكة بظهور صورة شرقية من العلمانية تحتفظ بالقيم الإسلامية وتستلهمها، وبهذا يحدث نوع من التوازن ما بين عناصر الحفاظ والثبات وقوى التقدم والتطور .

ويفترض أن يرضى الذين يمثلون "الدعوة الإسلامية" بهذه القسمة، وليست هى بالقسمة الضيزى، وأن يصرفوا النظر تماماً عن إعادة عقارب الساعة إلى الوراء أو إحياء الماضى كما كان.. فليس هذا ممكنا... وقد لا يكون مطلوبا .

إن المعضلة التى تواجه الفكر الحديث هى كيف يمكن إحياء القيم الدينية سواء كانت إسلامية أو مسيحية – وتعميقها فى النفوس بحيث تكون كابحة للشذوذ والسرف والانحراف حاثة على الخير والقصد والاستقامة دون إيجاد "آلية" تقوم بذلك ؟ لأننا لو أوجدنا هذه الآلية لأصبحت هى "الكنيسة" أو المؤسسة الدينية، ولظهر رجال الدين المسيحى وعلماء الدين الإسلامى ولاحتكروا الدعوات الدينية – أو على أقل تقدير فرضوا وصاية عليها وهو أمر مرفوض تماماً .

إن التعقيد والصعوبة التى تكتنف التوصل إلى الحل يجب أن لا تحول دون بذل كل الجهود فى سبيل ذلك فليس الحل بالمستحيل، فى حين أن

وجوده أمر لا مناص منه لأنه هو الذى سيجعل من قضية العلمانية قضية حضارية وليست مؤسساتية، تنبثق عن المجتمع، وليس عن الدولة ويفسح المجال لوجود علمانية إسلامية فيها تحرر العلمانية وعقلانيتها مع الاحتفاظ برأس ومحور العقيدة وهو الإيمان بالله وما يشعه ذلك من إيمان بالرسل والقيم الحضارية الإسلامية .

الفصل الثانى
الموقف من القومية

برزت "القومية" على ساحة الفكر العربى ورزقت عوامل معينة دفعتها إلى الصدارة بحيث ارتأى البعض أنها البديلة عن اتجاهين يثيران الحساسية هما الاشتراكية والإسلامية، ولكن القومية عندما قدر لها أن تطبق بالفعل لم تكن أسعد حظاً من التجربتين: الاشتراكية والإسلامية .

نشأة القومية :

ولكى نفهم "القومية" فهما شاملاً، وعميقا علينا أن نلم بأبعادها وأعماقها والعوامل التى أدت إلى ظهورها وما هى مواطن القوة والضعف فيها .

وفيما يلى بعض النقاط التى قد تجلى ذلك ...

أولاً: إن القومية لم تكن دائماً النظام المطبق فى العالم الأوربى أو الشرقى، إنها تمثل مرحلة معينة وتظل ما بقيت الظروف الموضوعية لهذه المرحلة. وقد سبقتها نظم ذات طابع عالمى كالهيلينية وقت الإسكندر أو السلام الرومانى عصر سيادة الرومان ثم العالمية المسيحية فترة هيمنة البابوات والعالمية الإسلامية فترة الخلافة وفى هذه العهود كلها لم يكن للقومية وجود، ويمكن أن نتصور مستقبلاً لا توجد فيه القومية أو تندرج فى إطار كيانات دولية ذات طابع عالمى فيظهر كيان دولى عالمى رأسمالى.. وآخر اشتراكى أو تتوحد أوربا فى "اتحاد الولايات الأوربية الخ..."، وهو ما حدث بالفعل فى الفترة المعاصرة .

ولم تظهر القومية فى أوربا إلا مع ظهور الاقتصاد الرأسمالى وتوسيعه للسوق من مستوى القرية إلى المستوى القومى وقضائه على النظام الإقطاعى بأواصره التقليدية والقيود التى وضعتها الطوائف، وظهور الدولة والسلطة المركزية وهيمنتها على مختلف أطراف البلاد ومرافقها وإذابتها جميعا فى بوتقة واحدة. كما اقترنت فى بعض الحالات بنيل الاستقلال من محتل أو استعادة الحدود من مغتصب .

وبالنسبة للشرق، فقد بدأت فكرة القومية بداية مشبوهة بل مشؤومة على أيدى رجال "الاتحاد والترقى" فى تركيا فى مستهل القرن العشرين ثم ظهرت فى المناطق العربية كرد فعل وليس كفعل أصيل بمعنى أنها لم تكن نتيجة توسع فى السوق أو ظهور اقتصاد رأسمالى أو سلطة مركزية. ولكن كموقف اضطرت إليه المناطق العربية إزاء سياسة الاتحاد والترقى. وقد يقال إن هذا الموقف يمثل تحدياً والتحدى هو أحد المنطلقات المعروفة لظهور القوميات فالقومية الألمانية مثلاً ظهرت كصورة من التحدى للغزو الفرنسى واحتلال نابليون.. ولكن الحقيقة أن القومية العربية لم تأخذ موقف التحدى الإرادى والإيجابى، لأن أحرار العرب كانوا حتى آخر لحظة على استعداد للوقوف مع تركيا فى الحرب، والمجموعة الوحيدة التى أرادت التحرر هى الشرذمة المارونية التى اتصلت بفرنسا لتستظل بحمايتها، ولكن رجال الاتحاد والترقى الذين أعماهم التعصب لم يتجاوبوا مع أحرار العرب، فمنطلق القومية العربية لم يكن التحدى الإرادى الإيجابى ولا هو نتيجة لعوامل موضوعية من توسع السوق الخ... ولكن من منطلق الضرورة والظروف الطارئة. الأمر الذى قضى بأن تصطحب نقطة الانطلاق العملى بمحالفة بريطانيا والاعتماد عليها رغم أن أطماعها الاستعمارية وتآمرها مع فرنسا لم يكن مجهولاً. وليس هناك ما هو أتعس من هذه البداية التى لا يمكن أن تفخر بها أى قومية وكأن هذه الولادة التعسة أورثت القومية العربية بعض خصائصها وجعلتها تظهر فى كل منعطف من المنعطفات أو حيث تدبر مؤامرة.. أو تراد هيمنة فتداولها كالكرة عبد الناصر فى مصر والبعث فى سوريا والعراق وأضفى عليها الناعقون بها ستار العلمانية المزعوم .

ثانياً: ليست النعرة القومية هي أفضل أو أسمى ما يمكن أن تقوم عليه النظم السياسية لأنها تتضمن – مهما اتسعت – محددات الجنس والدم والأرض واللغة الخ... وهي بطبيعتها محدودة فإذا حاولت الاتساع فيكون ذلك على حساب فعالية محدداتها ومن ثم فإنها تهزم نفسها بنفسها وإذا حاولت تعزيز نفسها فسيكون ذلك على حساب كل المعاني والقيم الإنسانية والعالمية كما هو الحال في القوميات المحكمة والمغلقة.. القومية الجرمانية الآرية كما وضعها جوبينو وتشمبرلن وهتلر.. أو القومية الإسرائيلية التي طبقها بن جوريون وغلاة إسرائيل، وقد اتفقت الدعوات الدينية والشيوعية على استهجان القومية فرأى فيها ماركس وانجلز "الأنانية بالجملة" واعتبرا في المانيفستو الشيوعي أن الصفة التي تميز الشيوعي عن غيره هي أنه يقدم المصلحة البروليتارية العالمية على المصلحة القومية. وظل هذا هو الخط "الأرثوذكسي" للشيوعية الذي تمسك به لينين وروزا لوكسمبرج في مواجهة أقطاب الدولية الثانية الذين دخلوا الحرب العالمية الأولى مع حكوماتهم.. واستبعد الإسلام النزعة القومية حتى عندما تأتي من العرب، وقضت على القومية إلى الأبد كلمات محمد الخالدة "دعوها (أي العصبية) فإنها منتنة" "لينتهين أقوام يفخرون بآبائهم الذين ماتوا. إنما هم أهون على الله من الجعل الذي يدهده الخرء بأنفه. إن الله أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء إنما هو مؤمن تقي أو فاجر شقي. الناس كلهم لآدم وآدم من تراب" وبالمثل فإن المعيار بالنسبة للمسيحية في الانتماء هو الانتماء إلى كنيسة، وليس الإقامة على قطعة معينة من الأرض.. وقد "دشنت" – ومعذرة عن التعبير – القومية البريطانية نفسها بدم أفضل مفكر مسيحي في بريطانيا وهو "توماس مور" مؤلف اليوتوبيا الذي رفض أن يوافق الملك هنري الثامن على فصل كنيسة إنجلترا من البابوية.. كما ضحت القومية الفرنسية التي أبرزتها الثورة الفرنسية بالجماهير التي كانت وقودها وجندها لحساب مصالح البرجوازية الصاعدة. كما يمكن تعرف ذلك. من مطالعة بيان "حقوق الإنسان والمواطن" وكذلك قانون نابليون الذي بلور مصلحة الطبقة البورجوازية على حساب مصالح العمال .

وهكذا فإن القومية لم تحقق مطالب الجماهير. ولا آمال الفلاسفة وكانت فى الحقيقة صنيعة السياسيين وأداة البورجوازية .

وقد يوضح ذلك على الصعيد العربي أنه رغم ذلك الحديث الطويل العريض عن القومية العربية والوطن العربى الخ... إلا أننا نجد كل دولة عربية متمسكة بجنسيتها الخاصة مغلقة حدودها فى وجه الدول العربية الأخرى، وبعضها لا يزال يتمسك بتأشيرة الدخول المستعصية، والأسوار الجمركية عالية تحول دون دخول السلع والمنتجات، وهناك تفرقه فى المعاملة ما بين أبناء الوطن العربى الواحد، واعتزاز بالجنسية اعتزازاً يماثل – فى بعض الحالات – اعتزاز الألمانى بالجنس الآرى.. فأين أثر القومية العربية.. وهل هى حبر على ورق أو شعار للمزايدة ؟ إن هذه القيود والتفرقات لم تكن موجودة فى العهد الإسلامى وكان الطالب والتاجر والحاج يخترق العالم الإسلامى شرقاً وغرباً شمالاً وجنوبا لا يجد حظراً أو قيداً ولا يحس غربة.. وحتى الفترة التى سبقت مباشرة استشراء القومية لاحظ أحد الكتاب أن حكومة الملك عبد العزيز آل سعود الأولى ضمت بين الوزراء عبد الله الدملوجى (عراقى) وفؤاد حمزة (فلسطينى) وحافظ وهبه (مصرى) ويوسف ياسين (سورى) ورشدى ملحمى (فلسطينى) وخالد الكركنى (ليبى) .

ونقل الكاتب عن أنيس الصايغ ...

"كان ثلثا الوزراء فى السنوات العشر الأولى فى شرق الأردن من خارج الإمارة. أما رؤساء وزارتها فكانوا كلهم من خارجها من سوريا وفلسطين أما موظفو الحكومة فقد ظل ثلثهم من خارج الإمارة إلى أكثر من عشرين سنة"[١] .

ثالثاً: إن تكوين القوميات فى أوربا يجب أن لا يتخذ سابقة يبنى عليها تكوين القوميات العربية. إن القوميات الأوربية تكونت تكوينا تاريخيا اقتصاديا وسياسياً واجتازت قرونا فى سبيل ذلك فضلاً عن أن لها أوضاعها

---

(١) كتاب القومية والغزو الفكرى للأستاذ جلال كشك ص٣٩ .

الخاصة التى لا يشترط – ضرورة – أن تتكرر فى المجتمعات العربية وقد رأينا أن القومية العربية لم تكن نتيجة تخمر فكرى أو تطور اقتصادى.. ولكنها كانت رد فعل اضطرارى للسياسة التركية ومن هنا فإن الأمر فى القومية العربية لم يقتصر على عدم التكوين التاريخى الأصيل بل أيضاً اقترن بملابسة كانت هى السبب فى محالفة المستعمر كما أوضحنا .

ومع تسليمنا بأن هناك مبادئ أساسية تنتظم تطور المجتمع الإنسانى وأن هذه المبادئ لا تختلف فى دولة عنها فى دولة، إلا أن من المسلم به أيضاً أنه داخل هذا الإطار الواسع الفضفاض توجد عوامل خاصة وذاتية لها حساباتها وانعكاساتها على المبادئ الأساسية والرئيسية. وهذه العوامل ليست مبادئ مجردة ولا هى حصيلة حسابية.. إنما هى نتائج لتفاعل عوامل إنسانية واقتصادية وجدت فى الدول الأوربية وليس شرطا أن تتماثل فى الشرق والغرب وكمثال عارض فحسب فإن الإسلام ظهر بعد المسيحية بستة قرون أى أنه أكثر حداثة وجدة عنها بهذه المدة الطويلة، وهذه الواقعة لابد وأن تكون لها انعكاساتها فى اختلاف التطور وسياقه الخ... فى الشرق عنه فى الغرب .

بل إن مدلول ومفهوم الألفاظ والتعبيرات قد يختلف فى الشرق عنه فى الغرب فكلمة "دين" فى العالم العربى تثير متداعيات معينة مجيدة وشاملة لا تثيرها الكلمة نفسها فى العالم الأوربى الذى رزح تحت نير البابوات .

رابعاً: إن الأمة العربية الحديثة لم تتكون إلا بفضل الإسلام ولم يكن لها وجود أو شأن قبله. فقبل الإسلام لم يكن عرب الجزيرة إلا قبائل متفرقة يفخر بعضها على بعض بشعر شاعر.. أو كرم كريم أو سبق جواد. وكان عرب المدينة تحت الوصاية الفكرية لليهود. أما مصر والعراق وسوريا فكانت كلها مستعمرات للفرس والرومان تختلف ألسنتها ومصالحها باختلاف تبعياتها ..

جاء الإسلام فأوجد إيجاداً الأمة العربية الحديثة، كان هو شهادة ميلادها ونقطة انطلاقها وهو الذى حررها من التبعية ومنحها الحرية

والاستقلال ومحى كل فروق اللغة والجنس التى كانت تفرق بينها، ثم وضع فى يدها السيف والكتاب والميزان لتقوم برسالة إنسانية، عالمية عظمى لا يمكن القيام بها إلا بهذه الثلاثة .

وعندما يصطنع حزب عربى اسم "البعث" فالذى يرتسم بداهة فى ذهن كل عربى سوّى رشيد.. هو البعث الإسلامى.. لأنه ليس هناك بعث يمكن أن ينتظم العرب جميعاً إلا بعث يقوم على الإسلام الذى أوجد بالمعنى التاريخى والحضارى الأمة العربية. وليس هناك إلا المعتوهين والمغرضين والمصابين بعمى القلوب من يصرف هذا البعث إلى "الثورة[1] العربية التى انفجرت سنة ١٩١٦ لتحرير الأمة العربية وتوحيدها" كما يقول حزب البعث وهى الثورة التى تزعمها الشريف حسين المخدوع وقادها الكولونيل "لورنس" ضابط المخابرات ومولت بأموال بريطانيا، واستثنت من إطار الوطن العربى والقومية العربية مصر والشمال الأفريقى وقد كان فى شىء واحد من هذا ما يجعل حزب البعث يبعد عنها، لولا أنه شر منها .

خامساً: إن دور الإسلام فى القومية العربية لا يمكن تشبيهه أو مقارنته بأى دين آخر للأسباب الآتية :

أ- أن الرابطة الإسلامية كانت من القوة بحيث زودت الوطن الذى يعد بيضة الإسلام وأرضه الأصلية ومقر الكعبة والروضة على ممر العصور بقيادة بلغت الذروة فى الحرب والسلم والعلم والفن وإن لم يكونوا عربا وظل ذلك من طارق بن زياد البربرى إلى جوهر الصقلى إلى صلاح الدين الكردى إلى بيبرس القفقاسى حتى جمال الدين الأفغانى فضلاً عن تلك الكتيبة الفريدة من كتاب وعلماء خراسان والهند وما وراء النهر حتى مشارف سيبريا المتجمدة وزودوا الفكر العلمى بروائع قرائحهم، وكتبوها بالعربية احتسابا وتقربا وتشرفاً بلغة القرآن .

ب-أن الخلافة الإسلامية والشريعة الإسلامية ظلت قوام الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية للوطن العربى من ظهور الإسلام حتى

---

(١) المادة ٩ من دستور حزب البعث .

العقد الأول للقرن العشرين أى ثلاثة عشر قرنا متوالية ولا تزال حية بل متقدة فى النفوس رغم التطبيق السقيم لها وأن القوى الخارجية أزالتها عن مقاعد الحكم .

ج- أن اللغة العربية وهى الدعام الأعظم للقومية العربية هى بنت الإسلام قرآنا وحديثا ولا يمكن فصلها عن الإسلام وقد قام القرآن الكريم بالحفاظ على القومية العربية عندما أوجد العربية القياسية التى يكتب بها العرب على اختلاف أقطارهم ويتحدثون بها عندما تجمعهم المحافل ولولا القرآن لمزقت اللهجات المحلية اللغة العربية، ولتطورت هذه اللهجات مع الزمن إلى لغات كما حدث بالنسبة للغات الأوربية التى تفرعت من اللاتينية.. ولأصبحت حواجز دون القومية ودون الوحدة.. فليعرف دعاة القومية ذلك وليضعوا القرآن نصب أعينهم حتى لا تزل أقدامهم وتذهب بهم إلى الإقليمية الضيقة التى لا تساوى فى عصر الكيانات الكبيرة شروى نقير، وحتى لا تتلعثم ألسنتهم فلا يستطيعون حوارا أو كلاما مع بقية العرب .

سادساً: أن كل حركات التحرر من الاستعمار فى العصر الحديث التى أسفرت فيما بعد عن استقلال الدول العربية وظهور قومياتها لم يقم بها دعاة القومية، ولكنها قامت تحت رايات الإسلام وباسم الجهاد وهى التى ظفرت للدول العربية باستقلالها، سواء كان ذلك بالنسبة للسودان التى وضع "المهدى" ودعوته أسمها على خريطة الدول المستقلة. أو ليبيا التى قاومت الغزو الليبى فيها الطريقة السنوسية وبطلها عمر المختار، أو الجزائر التى قاد كفاحها عبد القادر الجزائرى، ثم عبد الحميد بن باديس أو المغرب (الريف) التى قهر فيها عبد الكريم الخطابى الجيوش الأسبانية وفى مصر كان شيوخ الأزهر هم الذين قادوا الثورة على نابليون ثم هم الذين جعلوا من محمد على واليا وألبسوه خلعه الولاية متحدّين فى ذلك السلطان التركى ثم كانت دعوة جمال الدين الأفغانى هى بداية اليقظة الحديثة فى مصر .

سابعاً: أن التطور التاريخى للأمة العربية التى ولدت على يدى الإسلام وشبت فى رعايته استمدت منه اللغة والتشريع والعادات والتقاليد

والذى طوى كل ما كان قبل الإسلام وجعله فى منطقة "اللاشعور التاريخى" للأمة العربية، هذا التطور جعل الإسلام هو ضمير الأمة العربية وكيانها ورمز عزتها وكرامتها وإضافتها إلى حضارة العالم وربط مصيرها بمصيره وأصبح الابتعاد عنه نوعاً من الضياع، والتيه، واليتم الروحى، ولا يعنى فصل العروبة عن الإسلام إلا أن تصبح العروبة جثة.. أو صدفة فارغة من لؤلوتها وسيجد الإسلام ناساً آخرين فى أقصى الأرض يعتنقونه ويؤمنون به حتى وإن لم يتكلموا العربية.. ولكن العروبة لن تجد إسلاماً آخر.. ولن تجد محمداً آخر يوحدها على أكمل نسق.. وإذا كان الإسلام محتاجاً للعرب مرة فإن العرب محتاجون للإسلام ألف مرة.. فلا يمنن أحد على الإسلام إسلامه لأن الإسلام أعطاه ما يصغر أمامه كل عطاء .

إن هذه الحقيقة لم تفت المفكرين المنصفين من غير المسلمين، لأنها من باب الوقائع التاريخية، وليست من باب الآراء والافتراضات الجدلية، ولكن الجهالة الأوربية التى تأصلت فى أوربا منذ الحروب الصليبية حالت دون أن يعرفها معظم المفكرين الأوروبيين وإن ألم بها العرب المسيحيون فقد اعترف بها المنصفون أولا لأنها واقعة وثانيا لأنه وإن فاتهم الانتماء للعقيدة الإسلامية لمواصفات اجتماعية فإنهم يسعدون بعدالة الإسلام قدر ما يطربون لإعجاز القرآن. وهذا هو الدكتور قسطنطين زريق الأستاذ بالجامعة الأمريكية فى بيروت يتحدث فى كتابه الوعى القومى عن القومية العربية والدين بمناسبة ذكرى مولد "النبى العربى الكريم" فيرد على التساؤل ما علاقة النبى محمد بالقومية العربية وما رسالته إليها .

"النبى محمد هو أولا، نبى الإسلام عليه أنزل هذا الدين الكريم وبواسطته انتشر فى مشارق الأرض ومغاربها وقد بلغ أثر هذا الدين كل ناحية من نواحى ثقافتنا العربية فلسنا نستطيع اليوم أن نفهم تراثنا العربى القديم، سواء فى الفلسفة أو العلم أو الفن إلا بعد درس عميق لنصوص الدين الإسلامى وأحكامه، وتفهم صحيح لروحه ونظامه. وهذا التراث العربى قسم من ثقافتنا الحاضرة، بل هو أساسها الذى تقوم عليه وباطل ما ينادى به البعض من أن نرمى بهذا التراث القديم جانباً ونقبل على الثقافة الغربية

الجديدة، فالتراث العربى جزء منها - شئنا أم أبينا - وهو فوق ذلك ميزتنا التى بها ننفرد بين الأمم، وقد أوتى من الخصب والقوة والجمال ما يدفعنا إلى الحرص عليه ومفاخرة الناس كلهم به. ولهذا وجب على كل عربى، من أى طائفة أو نحلة يهتم بثقافته الماضية وببعثها الجديد به - وهذا الاهتمام هو فى طليعة الواجبات التى تفرضها عليه قوميته - أن يقدم على درس الإسلام وتفهم حقيقته ويقدس ذكرى النبى العظيم الذى أنزل الإسلام عليه .

والنبى محمد هو، من ناحية ثانية، موحد العرب وجامع شملهم. بعث إليهم وهم أشد ما يكونون تفرقة وخلافا يتحاسدون ويتناحرون ويحارب بعضهم بعضاً لا رابطة قوية تجمعهم ولا شعار يوحدهم ويوفق بين قلوبهم، فنفخ فيهم من روحه المحيية، فإذا هذه القبائل المتنافرة قد تآلفت، وإذا هذه الجموع المتباعدة قد تقاربت وإذا الجميع كتلة واحدة قد صهرت فى بوتقة الإيمان، ففاضت على العالم تبعث فيه القوة والنشاط وتنشر عليه الحضارة والعمران"[1] .

وهذا هو الأستاذ أمين نخلة يقول :

"لا حرج فى التمسك بالقومية والكلف باللغة، كما لا حرج فى الدين، تتلاقى ملتا العرب، (ملة القرآن)، و (ملة الإنجيل)، حتى كأن الإسلام إسلامان، واحد بالديانة وواحد بالقومية واللغة .

أو كأنما العرب جميعاً مسلمون حينما يكون الإسلام هكذا: هدى بمحمد، وتمسكا بقوميته، وكلفا بلغته، وأن لغير المسلم فى أرض العرب أن لا يدين "بدين ابن عبد الله" وأن يخلب لبه مثلاً كتاب "لابن مريم" كل حرف منه يقطر رفقا، وصليب قعدت به دنيا وقامت به دنيا .

وأما أن يكون فينا عربى، من لحمنا ودمنا، ثم يغدو لا يمت إلى محمد بعصبية، ولا إلى لغة محمد وقومية محمد، فهو ضيف ثقيل علينا، غريب الوجه بيننا .

---

(١) الوعى القومى للدكتور قسطنطين زريق ص١٢٨ - ١٢٩ (الطبعة الثانية) .

ويا محمد – يمينا بدينى، دين "ابن مريم" وبخشبات صليبه أننا فى هذا الحى من العرب "أى لبنان" نتطلع إليك من شبابيك البيعة، فعقولنا فى الإنجيل، وعيوننا فى القرآن" ..

وثمة مثال آخر، ليس أقل روعة ولا شاعرية من المثال السابق، هو الأديب العربى (اللبنانى المارونى) الكبير الأستاذ مارون عبود فلم يكتف بتأكيد عروبته والاعتزاز بالتاريخ العربى الإسلامى، قولاً، بل أكده فعلاً فى سلوك الحياة فسمى ابنه البكر محمداً، وكان أحب شىء إليه أن يكنى "بأبى محمد" وكان قد نظم قطعة أدبية طريفة يوم ولد ابنه محمد فقال :

عشت يا ابنى، عشت يا خير صبى ولدته أمه فى رجب

أمه ما ولدته مسلما و مسيحيا ولكن عربى

فهتفنا واسمه محمد أيها التاريخ لا تستغرب

ولقد أكد كثير من شعراء العرب المسيحيين هذا المعنى، أى الاعتزاز بالإسلام ورسول الإسلام باعتبار ذلك جزءاً من قوميتهم العربية وجزءاً من تاريخهم الذى إليه ينتسبون. ويقف فى الطليعة بين هؤلاء الشاعر القروى الأستاذ رشيد الخورى. ففى ديوانه الضخم عشرات المواقف العربية الرائعة نجتزئ منها قوله فى قصيدة .

أنا العروبة لى فى كل مملكة

إنجيل حب ولى قرآن أنعام

سل عهد شامى وبغدادى وأندلسى

عن عمق فلسفتى من عدل أحكامى

شغلت قلبى بحب المصطفى وغدت

عروبتى مثلى الأعلى وإسلامى

ويقول فى قصيدة أخرى معتزاً بأمجاد العروبة وأبطالها .

أتجف أوراق العروبة فى ربى لبنان وهى نضيرة لم تذبل ؟

أتريد أعظم من أبى بكر ومن عمر إذا انتسب الكرام ومن على ؟

ويقول فى محل آخر: "ما كنت، حتى قبل أن أولد، إلا عربياً صميماً. ولكن لم تكن لى فكرة سوية عن الرسول العربى ولا قرأت كتابه وحديثه حتى أتانى الله فضله على يد.. فماطت عن بصيرتى حجاباً من الجهل كثيفاً، وحلقت بى إلى سماء من تراثنا الروحى لم تكن خطرت لى على بال. وأى حر يعشق الحق حيث وجده، وأديب يهيم بالحكمة وساحر البيان لا يخر ساجداً للحديث الشريف ومعجز القرآن.. وشرع يقينى بتفوق أمتى يزداد رسوخاً من ذلك الحين ونار حبى وحماستى تزداد ذكاء ببرد هذا اليقين"(١) .

بل أكثر من هذا.. هذا هو ميشيل عفلق.. بلحمه وشحمه يقول – فى لحظة من لحظات الإلهام الصادق ..

"الفكرة القومية المجردة فى الغرب منطقية إذ تقرر انفصال القومية عن الدين لأن الدين دخل على أوربا من الخارج فهو أجنبى عن طبيعتها وتاريخها، وهو خلاصة من العقيدة الأخروية والأخلاق لم تنزل بلغاتها القومية ولا أفصح عن حاجات بيئتهم، ولا امتزج بتاريخهم فى حين أن الإسلام بالنسبة إلى العرب ليس عقيدة أخروية فحسب ولا هو أخلاق مجردة بل هو أجلى مفصح عن شعورهم الكونى ونظرتهم إلى الحياة وأقوى تعبير عن وحدة شخصيتهم التى يندمج فيها اللفظ بالشعور والفكر، والتأمل بالعمل، والنفس بالقدر(٢) .

وفى مصر وجد الكاتب القبطى الدكتور نظمى لوقا مؤلف "الموسوعة الإسلامية الكبرى" التى تضمنت عدداً من أفضل الكتب عن حياة النبى صلى الله عليه وسلم كما وجد الزعيم السياسى مكرم عبيد الذى قال "أنا مسلم وطنا.. ونصرانى دينا" وكان الزعيم السياسى المصرى الوحيد الذى اخترق

---

(١) من كتاب "هذه قوميتنا للأستاذ عبد الرحمن البزار ص٢٣٨ – ٢٤١ .

(٢) فى سبيل البعث ميشيل عفلق تحت عنوان "ذكرى الرسول العربى". وقد قيل إن ميشيل عفلق اعتنق الإسلام وأوصى أن لا يعلن هذا إلا بعد وفاته. وقد قرأت مقالاً فى مجلة "سوراقيا. [اختصار سوريا – العراق] التى تصدر فى لندن – وكنت هناك وقتها بعنوان "ميشيل عفلق فى ذمة الإسلام" وشاهدت صورة جسده محمولاً على اكتاف قادة حزب البعث العراقى – وفى مقدمتهم صدام حسين – يدخلون به المسجد للصلاة عليه. فإذا صحت الواقعة فلها مغزاها وإن لم تصح فمغزاها أعظم .

أسوار الجنود التى حاصرت بيت الإمام الشهيد حسن البنا عند استشهاده وحالت دون دخول أى واحد.. وقدم تعازيه إلى أسرة الفقيد.. والذى أهداه الكاتب الإسلامى جلال كشك كتاب "القومية والغزو الفكرى" .

وقد عرف الكاتب القبطى الشهير سلامة موسى بعداوته للأديان، ولكنه قال فى "التثقيف الذاتى" على كل شاب ينشد الثقافة ويريد أن يكفل لنفسه معرفة عامة بالثقافة العربية القديمة أن يقتنى القرآن باعتباره الأساس الذى بنى عليه المجتمع العربى وليس هذا واجب كل مسلم، بل هو واجب كل مسيحى ويهودى أيضاً. وقال "إن الإسلام هو أقرب العقائد والأديان إلى العقل وكان أول من دعا إلى الاحتفال بالعيد الألفى للأزهر[١] .

قومية دون إسلام :

فى مقابل الخط السابق الصريح الذى يرتكز على وقائع وحقائق تاريخية، ويصدقه كفاح بطولى ضد الاستعمار رفعت رايته الدعوة الإسلامية نجد أن البدائل التى تتجاهل الإسلام تتخبط تخبطاً شنيعاً. إن عجز الهيئات الإسلامية عن التوصل إلى الصيغة السليمة التى يمكن أن يقوم عليها المجتمع العربى الحديث قد أفسح المجال لهذه البدائل. ولكن تجاهل الإسلام فى كل هذه البدائل أوجد ثغرة استحال عليها سدها، ولما كانت هذه البدائل تعود إلى أشخاص القائمين عليها وتتأثر بملابسات نشأتهم وغيرها من العوامل الذاتية مما يجعلها ليست على استعداد لإحلال الإسلام محله الواجب فى المجتمع العربى، فلم يكن ثمة مناص من عملية التنكر لكل الماضى الإسلامى وقطع الصلة به والبدء من الحاضر وسد الثغرة الواسعة التى أوجدها تجاهل الإسلام بمحاولة الانتماء إلى أيديولوجية دولة من الدول الكبرى وبوجه خاص الاتحاد السوفيتى وفرنسا وهذا هو ما نراه بالنسبة للشيوعيين الذين جعلوا قبلتهم موسكو.. والموارنة الذين جعلوا قبلتهم باريس، وقبلت كل مجموعة منها حضارة وقيم الدولة التى تطفلوا عليها وسعوا لأن يكونوا تبعا لهاً .

---

(١) أنظر حوليات سلامة موسى .

أما الدعوات الأخرى فكلها تتبع طريقة التلفيق بدءا من أنطون سعادة "مؤسس الحزب القومى" ثم حزب البعث ثم الاشتراكية العربية التى وضعها جمال عبد الناصر.. والمحاولات التلفيقية فى الدول الأخرى.. وهى كلها اجتهادات سندها الأعظم هو الحكم، ولو تخلى عنها الحكم لهوت وسقطت وهذا الحكم نفسه عسكرى يقوم على أسنة الرماح وقد عجزت هذه النظم عن أن تجد مؤمنين بها، كما عجزت عن أن تدفع عن نفسها تسلل الشيوعيين الذين أصبحوا غصة فى حلقها، وحليفا لدودا لها، والشيء الوحيد الذى نجحت فيه هو إيجاد طبقة منتفعة وضعتها فى المراكز القيادية لتدافع عن مغانمها وبالتالى تحفظ النظام .

والقومية العربية عند هؤلاء بدأت على حد قول مصطفى الشهابى الذى آمن بما ذهب إليه جورج أنطونيوس فى كتابه "يقظة العرب" "فى بيروت وكان من روادها الأوائل المعلم ناصيف اليازجى والمعلم بطرس البستانى والشيخ يوسف الأسير" وهذه المجموعة كانت تقاوم تركيا وتضع اللغة العربية التى تبنتها محل الإسلام الذى تبنته تركيا .

ودستور هذه المجموعة القومية العربية كان قصيدة إبراهيم اليازجي .

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب فقد طما الخطب حتى غاصت الركب

وهى قصيدة عنترية تستنهض العرب للثورة على الترك بحد السيف وصليل البيض الخ... وقد اعتبرها دعاة هذه المجموعة نوعاً من "المزامير" أو المارسيليز .

والملاحظة الأساسية التى فاتت كل دعاة هذه المجموعة فى غمرة إعجابها بالقصيدة أن القصيدة وإن تضمنت ثورة على الترك إلا أنها لا تقدم الأساس الإيجابى للقومية العربية أو النظرية للقومية العربية .

وكائنا ما كان هذا النقص فنحن على كل حال نتقبلها كخطوة، فمن الزاوية الإسلامية البحتة – فإن كل حرص أمين على اللغة العربية، واعتزاز حقيقى بها.. لابد وان يقود إلى الإسلام، ولابد وأن ينتهى إلى القرآن، ولكن

نقطة التحول جاءت مع ظهور الجماعة الفرنسية التى تفتقد الإسلام والعربية معاً.. ومع هذا تدعى العروبة!!! ويضعها مؤرخو القومية العربية بين مؤسسى القومية مثل نجيب عزورى الذى أسس جمعية الوطن العربى فى باريس سنة ١٩٠٤ وألف كتاباً بالفرنسية عن "يقظة الأمة العربية" وكان من أفكاره أن مصر ليست عربية وعارض استقلال مصر عن بريطانيا وأسس فى مصر حزباً صغيراً تعاون مع الدولة المحتلة ووضع آماله العربية السورية فى فرنسا أولاً وفى إنجلترا ثانيا .

وعلق على دعوة المسيو "عزورى" هذا أحد مؤرخى القومية العربية فقال ".. دعوته هذه لم تكن لتلقى صداها فى البلاد العربية فى يسر لأن نشاطها ومقرها كان فى باريس وباللغة الفرنسية ولأن صاحبها كان داعية للدول الغربية: فرنسا وإنكلترا ولم يخل كتابه من تمجيد لهما، فكان ذلك مجال للشك والشبهة". ويؤكد مؤرخ آخر أن أحداً من الشباب العربى لم يهتم بكتابه .

وروى جميل بيهم أن قنصل فرنسا كان أحد أعضاء الجمعيات البيروتية التى تعمل للتخلص من الحكم العثمانى .

ويقول إدوار عطية .

"كان السوريون المسيحيون يكرهون السيادة التركية ويتطلعون نحو التحرر منها لا بقصد تأليف دولة سورية مستقلة لأنهم يكونون فى مثل هذه الحالة مضطرين لأن يخضعوا لحكم يشكل فيه المسلمون أكثرية ساحقة وعندئذ يتعرضون.. حسب اعتقادهم إلى الاضطهاد والظلم، وعليه كانوا يتطلعون نحو التحرر من السيادة الإسلامية بمساعدة دول أوربية تطرد الترك من البلاد وتحكم سوريا بدلا منها .

يستطرد إدوار عطية .

"أن ذلك لم يكن يعد خضوعاً لسيادة أجنبية، ولم يكن الأمر كذلك طالما أن الدولة الأوروبية المسيحية هى من نفس الديانة التى يعتنقونها..

أليس أهلها أخوة لهم فى المسيحية ؟ وبذلك يتخلصون من النظرة التى كان ينظر إليهم بها المسلمون من كونهم أقل منزلة منهم وليتحرروا من الاضطهاد الذى ظلوا يرزحون تحته منذ مئات السنين[١] .

وبجانب المدرسة الفكرية اللبنانية وجدت مدرسة فكرية سورية تتفق مع المدرسة اللبنانية فى استبعاد الإسلام ولكنها لا تربط انتماءها بدولة وحاولت أن تبدع أساساً فكريا لقومية عربية، وعن هذه المحاولة تكون الحزب القومى السورى لأنطون سعادة وحزب البعث لميشيل عفلق وأول هذين – أنطون سعادة – مثال هزيل "مهزوز" لهتلر وموسولينى وقد حالفه سوء الحظ لأنه لم يستطع التوصل إلى مجموعة من الضباط تقوم بانقلاب وتحكم باسمه، الأمر الذى نجح فيه حزب البعث فى سوريا والعراق، أما ميشيل عفلق نفسه فهو مفكر حالم لا يجد إلا العواطف يزجيها لجمهوره وقرائه وإن قام حكم حزبه فى سوريا والعراق على الحديد والنار .

وفى المحصلة الأخيرة.. فإن القومية العربية لن تعدو مهما أحاطها به أتباعها من دسم أو عواطف أو مشاعر، ومهما قالوا إنها لا تقوم على عنصر أو جنس لأنها مفتوحة لكل من يتكلم العربية (لأنه عمليا لن يتكلم العربية إلا العرب) فإنها لن تكون إلا نزعة عنصرية شوفونية تتسم بكل ما تتسم به هذه النزعات من تقطب ما بين العاطفية والفاشية لأنه مع افتقاد الإسلام تفقد القومية العربية :

أ- المقياس الموضوعى كل الموضوعية .

ب-الطابع الإنسانى كل الإنسانية .

ج-النظرية الشمولية الوحيدة التى ظهرت فى العرب، والتى على إحكامها الشمولى تبرأ من لوثات الشمولية الفاشية والشيوعية لأن عنصر الشمولية يقوم على الإيمان الطوعى ألا وهى الإسلام .

---

(١) أنظر كتاب القومية والغزو الفكرى للأستاذ محمد جلال كشك ص٢١٩ – ٢٩٢ .

د- المساهمة العظمى التى قدمها العرب إلى الحضارة عندما اعتنقوا الإسلام ورفعوا راياته. فعلى أساسه قامت الحضارة العربية والتى اشتركت فى إقامتها أجناس لم تجرِ فى عروقهم دماء عربية، ولم تجرِ ألسنتهم بلغة عربية. وإنما أسلم قيادهم وكفل مشاركتهم الإسلام ووجد من أكبر النابغين الفرس من يقول "لأن أهجى بالعربية أفضل من أن أمدح بالفارسية" كما قال المفكر الفارسى العظيم أبو الريحان البيرونى، ومن قبله قال الشاعر :

بك اتصلت أسبابنا بعد غربة

فنحن بنو الإسلام ندعى وننسب

ويخطئ حزب البعث ويخالف التاريخ ويلجأ إلى الخداع عندما يتحدث عن القومية العربية "رسالة خالدة" فلم تكن الرسالة الخالدة حصيلة القومية العربية. وإنما كان الإسلام هو الذى أبرز العرب وأشهرهم بعد نكر وأعلاهم بعد خمول ووحدهم بعد فرقة، فإذا كان للعرب فخر فإن فخرهم بالإسلام، وإذا تجردوا منه فإنهم يتجردون من مساهمتهم الحقيقية فى عالم الحضارة .

فإذا كان استبعاد الإسلام أو تجاهله فى كل تصور قومى قد أدى إلى هذا التخبط والتزييف فى سوريا والعراق ولبنان... وإذا كان من المعروف أن الذين قاموا بهذه المحاولات الهزيلة ليسوا من المفكرين أو المثقفين الثقات، فإن المأساة تكررت فى مصر، وعلى يدى مفكر وكاتب لاشك فى ثقافته وتمكنه العلمى، ولكنه لم يستطع - لعدد كبير من العوامل - أن يضع الإسلام موضعه فلم تشفع له ثقافته أو تمكنه من أن يسقط سقطة فاحشة من العسير أن نتصور أن يقع فيها لولا أن تجاهل الإسلام غير الصورة كلية.. وأخل بالحسابات تماماً ..

هذا هو الدكتور لويس عوض يحدثنا عما اسماه "مشروع الاستقلال الأول" الذى وضعه المعلم يعقوب فى أعقاب الحملة الفرنسية على مصر ..

والمعلم يعقوب هذا من واقع ما كتبه الدكتور لويس رجل قبطى كان يعمل فى خدمة بعض المماليك وعندما دخل الفرنسيون مصر التحق بجيش الجنرال ديزيه وكان – كما يقول لويس عوض يشترك فى قتال المماليك بشجاعة وضراوة جعلتا الفرنسيين يقدمون له سيفا تذكاريا تكريماً له، فلما غادر بونابرت مصر عاد المعلم يعقوب إلى القاهرة وكلفه كليبر بتنظيم مالية البلاد، وعينه قائداً للفيلق القبطى الذى شكل فى مصر ليعاون الفرنسيين فى حربهم ضد المماليك والأتراك ثم عين المعلم يعقوب مستشاراً لمسيو استيف مدير الإيرادات العامة ورقاه القائد العام عبد الله جاك مينو إلى رتبة جنرال وجعله مساعداً للجنرال بليار فى مارس ١٨٠١ للدفاع عن القاهرة ضد هجوم الجيش التركى الإنجليزى. ومنذ ذلك التاريخ ارتبط مصيره ومصير الفيلق القبطى بمصير الجيش الفرنسى وعند تسليم القاهرة فى يونيو ١٨٠١ دخل الجنرال يعقوب فى اتفاقية التسليم، وهكذا غادر القاهرة ليبحر إلى فرنسا مع الجيش الفرنسى بعد ثلاث سنوات قضاها فى التعاون مع الفرنسيين .

وهناك وثائق تدل على أن المعلم يعقوب قد نشأت بينه وبين الجنرال ديزيه صداقه متينة وعميقة. فنحن نعلم أنه حين جاءت الأنباء إلى القاهرة بموت ديزيه فى معركة مارنجو افتتح اكتتاب بين جنود الجيش الفرنسى فى مصر لإقامة نصب تذكارى تخليداً لذكرى ديزيه فكتب المعلم يعقوب إلى القائد العام قائلاً إنه متبرع وحده بثلث المبلغ المطلوب لإقامة هذا النصب التذكارى لهذا الرجل الذى يقول يعقوب إنه "وهبه قلبه" فلما مات الجنرال يعقوب كانت آخر كلمات ذكرها له الجنرال بليار طلبه أن تدفن رفاته فى قبر ديزيه[١] .

هذا هو البطل القومى، وتلك هى مؤهلات بطولته .

يستطرد الدكتور لويس عوض فيقول إن المعلم يعقوب رفض البقاء فى مصر بعد هزيمة الفرنسيين وخرج معهم، وكان من حظه أن يركب مع

---

(١) تـاريخ الفكر المصرى الحديث (كتاب الهلال) للدكتور لويس عوض – الجزء الأول ص ١٨١ .

الجنرال بليار على ظهر الفرقاطة الإنجليزية "بالاس" التى كان قومنداتها الكابتن جوزيف أدموندز، وأبحرت متجهة إلى قبرص وساحل آسيا الصغرى وبعد أن أبحرت بيومين أصابت يعقوب الحمى واشتد عليه المرض فمات بعد أربعة أيام .

وقبل أن يموت أفضى إلى كابتن الفرقاطة بمشروعه الخاص باستقلال مصر، وكان هذا المشروع كما لابد وأن يكون بحكم مقدمات وكفاح هذا البطل ضد قومه ومساعدته للغزاة المحتلين ومحاربته فى صفوفهم شيئاً أقرب إلى دعوة بريطانيا لفرض وصاية أو انتداب على مصر وجوهر مشروع الاستقلال المزعوم هو :

"إن الإمبراطورية العثمانية توشك أن تتداعى من كل جانب ولذا فمن المهم للإنجليز أن يلتمسوا بعض الوسائل المضمونة للاستفادة من عهد تمزيقها التاريخى بأنسب طريقة تحقق مصالحهم السياسية المستقبلية وإذا كان من الواضح أن من المستحيل على إنجلترا أن تمتلك مصر امتلاكها لمستعمرة وإذا كانت نفس هذه الصعوبة تقوم فى طريق فرنسا فإن "مصر المستقلة" ستكون إذا جاز هذا التعبير خاضعة لتأثير إنجلترا التى تملك ناصية البحار المحيطة بها. ولاشك أن استقلال مصر سيعجل بازدهارها ولكنها لن تكون إلا دولة زراعية غنية بالحاصلات الوفيرة الناتجة من تربتها الخصبة وغنية بتجارتها التى تتفرد بها مع وسط أفريقيا فما من دولة أخرى تستطيع أن تقوم بهذه التجارة. كل هذه المزايا مجتمعه سوف تعود بالثراء المطرد من غير شك على الأمة التى سيهمها دائماً أكثر من غيرها بسبب الهند، أن تتاجر مع مصر وفى بحارها" .

أما كيف يحكم المصريون أنفسهم فهذا ما جاء بالمشروع عنه :

"فإذا ما أجازت الحكومات الأوربية استقلال مصر فالسؤال هو: كيف يحكم المصريون أنفسهم ؟ وكيف يدافعون عن استقلالهم .

أولاً: إن هذه المذكرات المكتوبة على وجه السرعة لا تسمح لنا أبداً بالدخول فى تفاصيل مشروع الحكومة التى يقترح الوفد المصرى إقامتها

ولكن يكفى أن نلاحظ إن إنشاء هذه الحكومة لن يكون قط نتيجة لثورة استحدثها نور العقل أو اختمار المبادئ الفلسفية المتصارعة، ولكن تغييراً تجريه قوة قاهرة على حياة قوم وادعين وجهلاء، يكادون ألا يعرفوا فى الوقت الحاضر إلا عاطفتين تحركان الأخلاق: المصلحة والخوف.. فقليل من مال يزاد أو شىء من رخاء يضاف إلى حياة هؤلاء السكان نتيجة لقيام هذه الحكومة الجديدة، وهو أمر ليس بصعب التحقيق، يجعلهم بغير شك المدافعين الغيورين عن هذه الحكومة، ويجعلهم يحبونها، وكيف لا إذا كان أى شىء فى العالم أفضل من الطغيان التركى، فلتكن الحكومة الجديدة عادلة وقاسية وقومية.. كحكومة شيخ العرب همام فى الصعيد التى رويت عليك قصتها، فهى بالتأكيد سوف تكون موضع الاحترام والطاعة والحب .

ثانياً: كيف يدافع المصريون عن استقلالهم ؟ وهل سيكون هذا الدفاع ضد الأوربيين أن هذا لا يمكن أن يحدث إلا بعد وقت طويل وعندما تصبح القوة القومية منظمة وتكون قد اكتسبت الاحترام. أم أن هذا الدفاع عن الاستقلال سيكون ضد الترك والمماليك فى هذه الحالة نعتقد أن الدول الأوربية يمكنها أن ترد عنهم كل عدوان يقع على مصر وبالإضافة إلى هذا ففى إمكان المصريين أن يستقدموا على حسابهم قوة أجنبية مساعدة مؤقتة يتراوح عددها بين ١٢٫٠٠٠ و ١٥٫٠٠٠ رجل يكفون وزيادة لإيقاف الترك عند الصحراء ولتحطيم المماليك في داخل مصر وستصبح هذه القوة نواة القوة القومية وبالإضافة إلى هذا فيما أن العثمانلية يفعلون أى شىء من أجل المال فإن المال يجردهم من السلاح إذا هجموا على مصر فالمماليك كانوا دائماً يستعملون هذه الوسيلة كلما رأوا عاصفة تتجمع ضدهم فى استانبول" .

ولا نرى أنفسنا فى حاجة إلى التعليق على المشروع المزعوم، إن الدكتور لويس عوض لو أعطى الإسلام واحد فى المائة فحسب من الأثر الذى كان له فى المجتمع المصرى وقتئذ لما قبل أن يسمى هذا المشروع مشروع الاستقلال الأول، ولكن ماذا يفعل لويس عوض غير ذلك وهو الذى لم يتنكر للإسلام فحسب، بل وللغة العربية، وهو صاحب الدعوة إلى "كسر رقبة البلاغة العربية، وصاحب الصيحة" مات الشعر العربى مات عام

١٩٣٢ بموت أحمد شوقى. والذى كان بحكم ثقافته أجنبياً تماماً عن الثقافة العربية ولم ينكر هو نفسه أنه أوربى بحكم المزاج والثقافة .

* * *

وهكذا نجد أن هذه الزمر والجماعات التى تجاهلت الإسلام قد تفرقت بها الطرق إلى متاهات فالمجموعة اللبنانية المارونية لم تجد إلا التبعية الفرنسية مثلاً أعلى ومجموعة القومية العربية أنطون سعادة وميشيل عفلق لم تصل إلى ما هو أبعد من النزعات الشوفونية التى راجت فى ثلاثينات القرن وطعمت بعد ذلك بعناصر اشتراكية واستثارات عاطفية عربية فأصبحت تلفيقا مشوها لا يستند على إيمان.. ولكن على أسنة الرماح.. وليس فى هذا كله طائل.. ولا تزال الأمة العربية تفتقد أساسها الموضوعى المكين – الإسلام .

عزيز المصرى رائد القومية العربية الإسلامية :

فى مقابل هذه المحاولات الملفقة، والمتهافتة فى التنظير والتطبيق التى انتهى إليها المفكرون والزعماء المناهضون للإسلام، نجد أن فكرة القومية العربية السليمة، أى التى تعتبر الإسلام ذخرها وخصيصتها – قد ظهرت بقوة بمجرد أن بدأ حزب الاتحاد والترقى سياسة التتريك فى العقد الأول للقرن العشرين. وتجمع الضباط العرب (وهم من الشام والعراق لأن مصر كان لها استقلالها عن تركيا – حول الضابط المصرى الأصل – عزيز على المصرى الذى سلخ حياة أسطورية ما بين البلقان وطرابلس واليمن والأستانة وجده والقاهرة ويمكن أن يقارن فى المجال العسكرى بجمال الأفغانى فى المجال الفكرى ومثلت أكبر إسهام لمصر فى الحركة العربية، ولو لم يكن لها إلا هذا، لكفى. لأنه الذى درب ووجه معظم القيادات التى حملت لواء النهضة العربية .

ولما كان هذا الجيل لا يعرف الكثير عن عزيز المصرى فإنى سأقتبس فقرات من كاتب عربى عاصر عزيز المصرى يصعب أن يتهم بالتحيز هو

الأستاذ أسعد داغر. الذى كتب فى كتابه "مذكراتى على هامش القضية العربية" .

"وعزيز على هو أبو الفكرة العربية وحامل لوائها، فمن حق التاريخ على أن أقول كلمة عنه .

كان عزيز من أركان جمعية الاتحاد والترقى، بل كان ساعدها الأقوى. وقد اعترفت الجمعية بخدماته العظيمة وأحلته محله مر الاحترام والإكرام، ولكنه انفصل عنها بعد أن اتبعت سياسة تتريك العناصر وبالغت بها إلى حد لا تؤمن عاقبته. وقد نصح عزيز لأصدقائه من رجالها بأن يعدلوا عن هذه السياسة ويمهدوا سبيل النهضة لجميع العناصر العثمانية، ولا سيما العرب، وقد عقد مرة فى منزلة اجتماعاً كبيراً حضره كثيرون من عظماء الترك وزعماء الاتحاد والترقى للبحث فى تأمين الوحدة العثمانية، وعرض على المجتمعين مشروعا استحسنوه جميعاً، ما عدا أحمد أغايف الذى كانت معارضته سببا فى إحباط المشروع وإلقاء بذور الخلاف بين عزيز وجمعية الاتحاد والترقى، وبالتالى بين الفكرتين العربية والتركية .

وقد كان مشروع عزيز قائماً على تقوية السلطنة العثمانية بتقوية كل عنصر من عناصرها وتوثيق عرى الاتحاد بينها فلما رأى أن جمعية الاتحاد والترقى القابضة على زمام الحكم تنتهج سياسة عنصرية متطرفة لا يمكن أن يرتضيها العرب ولا العناصر الأخرى وأن الاتفاق معها على هذه السياسة مستحيل، وأنها ستجر البلاد إلى هاوية الخراب، ولا سيما البلاد العربية التى كانت هدفا لأطماع الطامعين، أيقن أنه لم يبق ثمة أمل بالنجاة إلا بتقوية الروح العربية وتعزيزها. فعمد إلى تأليف حزب عسكرى سرى هو حزب "العهد" وأنشأ له مركزا فى اسطنبول، ونظم وسائل الاتصال بين أعضائه، كما أن بعض أحرار العرب نظموا جمعية "الفتاة" وكانت سرية أيضاً .

وكانت علاقته بشبان المنتدى الأدبى[١] علاقة الأستاذ بتلاميذه. أو الأب بابنه يبث فيهم الفكرة العربية والروح الوطنية والأخلاق الكريمة الفاضلة،

(١) كان هذا هو مركز ومنتدى الشبان العرب فى الأستانة .

ويعلمهم تاريخ العرب فى مختلف أدواره موضحاً ما فى كل منها من مفاخر، سواء فى العلوم والفنون والآداب أو فى السياسة والإدارة والحرب، وسائر مظاهر الحضارة من اكتشافات واختراعات. وحرص إلى جانب ذلك على تنمية حسن الذوق فى أولئك الشبان وتعليمهم آداب السلوك فى المجتمعات الراقية. وكان يفعل ذلك كله بمنتهى الكياسة .

"ونُقل عزيز على إلى جبهة أسكوب فعرف كيف يعزز سيطرة الاتحاديين ويبسط نفوذهم فيها حتى استطاع أن يعلن الدستور هناك قبل أن يعلنه أنور ونيازى فى منطقتهما ببضع عشرة ساعة. وكانت المنطقة التى تولاها هى الملجأ الأمين للأحرار .

ولما شبت نار الثورة فى اليمن وغلبت الجنود العثمانية فى معركة جيزان حيث فقدت أكثر من ٢٨ ألف مقاتل وانقطعت عنها المؤونة والذخيرة بسبب الحرب الطرابلسية رأى عزيز أن يعقد الصلح مع الإمام يحيى. وقد وفق إلى صلح ظل العرب والدولة العثمانية يجنون ثماره حتى أواخر الحرب العظمى الأولى. ثم دفعته وطنيته الصادقة إلى طرابلس الغرب حيث تمكن على قلة جنوده ونفاد المال من يده من وقف الإيطاليين على الساحل زمنا طويلاً. وقد شهد له أعداؤه بالتفوق فى ميادين القتال وكتبت المجلات العسكرية الألمانية تقول إن معركة ١٦ يونيو سنة ١٩١٣ التى انتصر فيها على الإيطاليين هى من وجهة الفن العسكرى. كمعركة "كان" التى انتصر فيها هنيبال على الرومانيين ولا يزال رجال الحرب يتخذونها نموذجا لحسن القيادة" انتهى الاقتباس من الأستاذ أسعد داغر .

بالإضافة إلى مجموعة الضباط التى التفت حول عزيز على المصرى وألفت "العربية الفتاة" بعد "حزب العهد" وجدت مجموعة من المفكرين والفقهاء الذين انتظموا فى عدد من الأحزاب كان أعظمها حزب اللامركزية الذى كان من بين أقطابه الشيخ رشيد رضا والشيخ أحمد طبارة والسيد عبد الحميد الزهراوى رئيس المؤتمر العربى فى باريس سنة ١٩١٣ وكلهم من أصحاب الاتجاه الإسلامى كما كان هناك المنتدى الأدبى الذى ضم شباب

العرب فى الأستانة ورأسه عبد الكريم خليل وجمعية الإصلاح البيروتية وقوامها نخبة من أعيان سوريا وجمعية البصرة الإصلاحية ورئيسها السيد طالب النقيب .

وكانت هذه الأحزاب والجماعات تطالب بالحكم الذاتى للمنطقة العربية فى إطار الدولة العثمانية. ولم يطلب واحد منهم الاستقلال التام أو يهدف إلى الخروج عليها.. حتى وصل شنآن عداوة الترك للعرب درجة لم يعد معها مجال للتعاون فأبعد الضباط العرب من قيادات الجيش وحوربت اللغة العربية وسفهت التقاليد الإسلامية ثم كانت أحكام جمال باشا حاكم سوريا بالإعدام على زهرة مفكرى وسياسى العرب فقطعت كل جسور التعاون، ولا يمكن لأشد مناصرى القومية العربية القول غير ذلك، بحكم ما أظهرته القيادات العربية من تأييد لتركيا وما أعلنته الأحزاب العربية حتى قيام الحرب العالمية الأولى ومن أبرز الكتب التى أصدرتها الهيئات العربية وقتئذ كتاب "ثورة العرب" الذى طبع فى القاهرة سنة ١٩١٦ وأهدى إلى شهداء العرب الذين أعدمهم جمال وقد خصص المؤلف، وهو أحد رجال هذه الهيئات الفصل الخامس من هذا الكتاب للتدليل على "إخلاص العرب للاتحاديين"، وجاء فيه "أخلص العرب أمراؤهم وأحزابهم للاتحاديين قبل الدستور، وبعده، وأخلصوا لهم بعد الاتفاق الذى أبرموه معهم أواخر سنة ١٩١٣ وبعد إعلان الحرب أيضاً، والأدلة على ذلك عديدة" وأورد المؤلف خطابات كتبها أبطال وضباط العرب مثل سليم بك الجزائرى الذى كان يعد بعد عزيز المصرى أبرز ضابط عربى فى الحركة. ومختار بيهم وعبد الكريم خليل رئيس المنتدى الأدبى وعبد الحميد الزهراوى قطب حزب اللامركزية وعضو مجلس الشيوخ العثمانى وكان هؤلاء من الذين أعدمهم جمال باشا وبعد أن أورد المؤلف هذا الخطاب قال ..

"فهذه الكتب السياسية السرية، ومئات من أمثالها تظهر للملأ إخلاص للعرب للاتحاديين قبل إعلان الحرب الأوربية وبعدها، ولكن هذا الإخلاص العظيم لا يظهر بأتم مظاهره إلا بعد دخول الدولة العثمانية فى الحرب، فقد تناسى العرب حينئذ كل خلافهم مع الترك وانضموا إليهم قلبا وقالباً دفاعاً عن

الوطن المشترك فخاض جنودهم غمار المعارك فى العراق والقوقاز والدردنيل والقنال ومات منهم عشرات الألوف فى ميادين القتال واشتركت الأمة العربية مع جميع الشعوب العربية فى دفع الضرائب والأموال بحيث يمكننى أن أقول استناداً إلى إحصاء رسمى أن ما دفعته من الضرائب والتبرعات الحربية عن طيب خاطر كان أضعاف ما ضرب على الأمة التركية وما تبرع به الترك فى هذه الحرب .

ولو كان زعماء ومفكرو العرب يعملون وقتئذ للانشقاق عن الدولة العثمانية وقت محنتها وعند حربها لجاز لجمال باشا أن يأمر بإعدامهم باعتبار ذلك خيانة وكل القوانين الحربية تجيز له هذا. ومن ثم لا يصبح "سفاحاً"(١) .

وكل من يتصدى لتحليل التيارات التى كانت تتجاذب مفكرى وزعماء العرب وقتئذ يجد أنها :

أ- التيار الإسلامى الذى كان يريد من الناحية السياسية حكما ذاتيا داخل إطار الدولة العثمانية ومن الناحية الاجتماعية إصلاحا يقوم على الدعائم الإسلامية وقد استمر هذا التيار حتى أحكام الإعدام ١٩١٦ التى يمكن اعتبارها نقطة التحول .

ب- التيار القومى الذى كان يريد استقلال الدول العربية بعد أن تقطعت العلاقات بين العرب والترك بعد أحكام الإعدام. وهذا التيار وإن لم تكن الفكرة الإسلامية منطلقه، إلا أن أصحابه وجدوا أن من الضرورى الاستعانة بالإسلام ليكون الركيزة العظمى للحركة الجديدة ومن هنا وقع الاختيار على الشريف حسين وأبنائه، وبرز فى إعلان الثورة على الترك هجوم الترك على الإسلام .

---

(١) المفارقة إن هذا المجرم الأثيم جمال باشا فى الوقت الذى كان يتهم العرب زورا بالانشقاق عن الدولة، كان هو نفسه يجرى مفاوضات مع الحلفاء ليستأثر هو بحكم المنطقة العربية مستقلا عن الدولة العثمانية ورفض الحلفاء ذلك ..

ومعنى هذا أن التيار القومى لم يستطع أن يتدفق إلا بدافع إسلامى، لأن فعالية الفكرة القومية، على ما اكتسبته من حماسة لم تكن كافية لإقامة دولة.. وإعلان ثورة ..

ج- المسيحيون. وقد وقفت قلة منهم مع التيار القومى - الإسلامى، وقد صور الأستاذ أسعد داغر انطباعاته عندما قدم الأستانة قبيل إعلان الحرب العالمية الأولى "فى أثناء ذلك ظهر بين المشتغلين فى السياسة باسطنبول رأيان متناقضان أحدهما يقول بوجوب السعى إلى فكرة الجامعة الإسلامية والثانى يرى أن القومية هى الأساس الذى يجب أن تقوم عليه الدول منذ الآن، وأن الجهود كلها يجب أن توجه إلى خدمة الفكرة العربية مجردة عن كل شىء ..

وقد كنت أنا من جملة المؤيدين للرأى الأول القائل بالفكرة الإسلامية لاعتقادى بأن هذه الفكرة قوة عظيمة للعرب إذا أحسنوا استخدامها .

ولكن الأغلبية العظمى من المسيحيين وجدت أن التعايش مع المجتمع العربى الجديد المستقل لن يتيسر، ومن ثم فإنها طالبت بحماية فرنسية أو وضع خاص. وبدأ بعض هؤلاء بالفعل الاتصالات ووقعت بعض وثائق هذه الاتصالات فى يد جمال باشا بمجرد وصوله إلى سوريا وكانت من الأسباب التى عززت شبهاته فى معظم دعاة الحركة العربية" .

بداية مشبوهة ونهاية مهينة :

رأينا إن القومية العربية المجردة من الإسلام والتى تبناها حزب البعث ولفيف من المارونيين والمسيحيين الذين نظروا لها ونهضوا بها - تأخذ بدايتها من حركة الملك حسين عندما ثار على تركيا وانضم إلى الحلفاء الذين وعدوه فى خطابات مكماهون بدولة عربية من الحجاز حتى الشام بما فيها العراق، فى الوقت الذى كان سايكس وبيكو ممثلاً بريطانيا وفرنسا يقسمان المنطقة العربية بينهما، وكانت بريطانيا تعلن وعد بلفور. وبناء على هذه البداية المشبوهة قاد الكولونيل لورنس الحركة من وراء الستار. وكان هو المحرك والممول العملى وراء تحركات الملك حسن وابنائه فيصل، وعبد

الله. وتبينا بالطبع إن هذه الوعود كانت خداعاً لم تسفر إلا عن سيطرة فرنسا على سوريا وغرس إسرائيل فى فلسطين وإعلان الانتداب البريطانى على العراق. حتى ثار العراقيون، وأرادت بريطانيا ترضيه الملك عبد الله فيسرت أن يكون فيصل بن الملك حسين ملكاً للعراق. كما اقتطعت إمارة شرق الأردن وأعطتها للأمير عبد الله .

من هذه البداية المشبوهه تبنت فكرة القومية العربية أحزاب العسكر العازفة – إن لم تكن الكارهة للإسلام – كحزب البعث فى سوريا وعلى رأسه الطاغية حافظ الأسد وحزب البعث فى العراق وعلى رأسه الطاغية صدام حسين. وقد كان حكم هذين الطاغيتين فى حد ذاته أكبر إدانة للقومية العربية التى ادعياها. ولكن الأمر كان أعجب. إذ أن عداوة مريرة استعرت بين حزب البعث السورى وحزب البعث العراقى نشأت عن رغبة الاستئثار بالملك والزعامة. والملك – كما قال عبد الملك بن مروان – عقيم لا يقبل إبنا أو أخا أو شريكا، وأدت المنافسة ما بين هذين الطاغيتين على زعامة القومية العربية إلى تمزيق العلاقات ما بين الشعبين الشقيقين سوريا والعراق وإضرام العداوة بينهما وإيقاف العلاقات الدبلوماسية والسياسية .

ولما ظهر عبد الناصر الذى لم يؤمن فى بدايته بقومية عربية ولكنه أراد مظلة نظرية تظله ويقاوم بها الفكرة الإسلامية التى اعلن عليها حربا شعواء فوجد بغيته فى القومية العربية التى أصبح ما بين نهار وليل زعيمها الملهم وممولها الأعظم! وأدى الهوس بالقومية العربية إلى إقامة الوحدة ما بين سوريا ومصر التى لم تلبث أن تفككت وخلقت العداوة ما بين مصر وسوريا ردحا من الوقت، كأنما القومية العربية لا تثمر إلا العداوات بين الشعوب .

بعد موت عبد الناصر، وانفضاض مولد القومية العربية فى مصر. انفرد حزب البعث فى سوريا والعراق بتبنيها، وكون كل واحد منهما هيئات للعمل للقومية العربية ينفق عليها .

وظهر زعيم جديد للقومية العربية هو العقيد القذافى الذى اعتبر نفسه وارثا للناصرية وامتداداً لعبد الناصر. وتحمس القذافى وانفق الكثير، وصال وجال. ولكن جهوده كلها باءت بالفشل فاصطدم بجامعة الدول العربية وعادى الملوك العرب. وتقبل على مضض وجود الأسد وصدام فهما السابقون السابقون وهما مثله من العسكر. وفى النهاية يأس وندم "وأصبح يقلب كفيه على ما انفق فيها وهى خاوية على عروشها" فأعلن كفره بالقومية العربية ولم يكتم رغبته فى الانسحاب من الجامعة العربية واتجه نحو أفريقيا وحول أمواله وجهوده نحوها بأمل أن تنجح فى تكوين "اتحاد الولايات الأفريقية" وباختفاء صدام، وتنحى القذافى. وانزواء سوريا جفت المنابع أمام الذين احترفوا الدعوة للقومية العربية وتخصصوا فيها وحملوا لواءها وعقدوا مؤتمراتها ..

إن الإنسان ليأسى عندما يرى مجموعة من أفضل المثقفين العرب وقد أهدروا جهودهم وفكرهم فى قضية القومية العربية اتباعا لسياسات حكامهم أو انخداعاً بالأمل العريض والوهم الجميل فمضوا يعقدون الندوات ويصدرون القرارات والتوصيات وينفقون الأموال ويصدرون الصحف، ولو تركوا لأنفسهم يعالجوا القضية بالطريقة الجديرة بكل فكر، لبدأوا من الواقع ولحددوا الإجراءات ذات الأولويات والتى يمكن تنفيذها مثل التكامل الاقتصادى والسوق العربية المشتركة وصور التواصل الفكرى مثل تيسير وصول الصحف والمجلات ما بين الدول العربية بعضها بعضاً .

وكان عليهم بعد ذلك أن يضعوا الخطط لما تكون عليه عمليا هذه القومية العربية وهل هى تعنى أن تكون كل الدول العربية دولة واحدة ذات رآسة واحدة وسيادة واحدة. أم تكون دولاً فى إطار كونفدرالى أو فدرالى، ولعلهم لو فكروا طويلاً لوجدوا أن من الأفضل الوصول إلى هذه الوحدة على مراحل. كان تتكون وتتوحد دول الجوار فى إطار كوفدرالى فيكون هناك دولة تضم مصر وليبيا والسودان، ودولة تضم الشمال الأفريقى (تونس والجزائر والمغرب وموريتانيا) ودولة تضم دول شبه الجزيرة العربية أى الحجاز واليمن ودول الخليج، وتحتفظ كل دولة من هذه الدول بدرجة من

استقلاليتها ولكن يمكن أن ترفع الحواجز الجمركية على الأشخاص والسلع فيصبح دخولها وخروجها حراً فإذا تحققت هذه الوحدات من الدول فيمكن أن يتسع الإطار فيضمها جميعا إتحاد الدول العربية وقد سلكت أوربا هذا المسلك بهدوء وبطأ ومثابرة حتى تكللت جهودها، فتهدمت الأسوار القومية والجمارك والحدود واشتراط الفيزا، وتوحدت العملة، وتوحدت السياسات الاقتصادية، ولم يبق إلا القليل حتى تظهر أوربا الموحدة .

رؤية " للأمم العربية المتحدة " .

بقلم الإمام الشهيد حسن البنا[1]:

لقد كانت هذه الرؤية موجودة فعلاً، وتقدم بها الإمام الشهيد حسن البنا إلى قادة العرب الذين اجتمعوا لتحقيق "جامعة الدول العربية" وتقدم بها الإمام البنا فى ١٨ سبتمبر سنة ١٩٤٤ ولكنها بالطبع لم تحظ بالعناية، وربما بالنظر، من الديبلوماسيين الذين جاءوا منتفخين بدبلوماسيتهم ومناصبهم وألقابهم الخ... ليضعوا بعد ذلك الجامعة العربية المنكودة .

وعن فكرة "العرب أمة واحدة" كتبت المذكرة إن ذلك "أعدل وأنجح وأوضح قضية فى التاريخ" فقد اصطلحت على تكوين هذه الوحدة العربية وتدعيمها كل العوامل الروحية واللغوية والجغرافية والتاريخية والمصلحية وأن العرب من خليج فارس إلى المحيط الأطلسى ليتحدون بوحدتهم أية أمة متحدة فى القديم والحديث وليست تعوز هذه القضية الأدلة والبراهين . ولكنها يعوزها ثبات المؤمنين وعدالة المنصفين .

وتحدثت المذكرة عن تحقيق مظاهر الوحدة العربية فقالت :

فهناك خطوات أولية تعتبر وسائل عملية للوحدة المنشودة وهى فى الوقت نفسه من حق الحكومات العربية الخالص التى لا ينازعها فيه منازع ومن تلك الخطوات :

١. رفع الحواجز الجمركية .

---

(١) لقد نشرنا نص هذه الوثيقة كاملاً فى كتابنا "مسئولية فشل الدولة الإسلامية فى العصر لحديث الصفحات من ١٤٧ إلى ١٥٨ (دار الفكر الإسلامى) .

٢. إلغاء جوازات السفر ومنح حرية المرور والتنقل فى أى قطر من الأقطار العربية لكل عربى بعد التأكد من شخصيته وإباحة الهجرة والاستيطان على نظام واسع ميسر .

٣. التوسع فى التعاون الاقتصادى وتأليف الشركات العربية الواسعة النطاق من سكان البلاد العربية جميعاً فى أى قطر من هذه الأقطار ودراسة المشروعات العربية العامة دراسة مشتركة وإحياء ما تعطل منها كمشروع سكة الحديد الحجازية التى أنشئت بأموال العرب والمسلمين جميعاً .

٤. تنمية التعاون الثقافى والتشريعى والعسكرى بتوحيد برامج التعليم ومناهجه وتوحيد منابع التشريع وقواعده، وتوحيد نظم التدريب العسكرى وأساليبه، ومؤتمر الوحدة العربية مطالب من العرب جميعاً بأن يعمل على تقرير هذه الخطوات ورسم الخطط الموصلة إلى تحقيقها وجميع الحكومات والشعوب العربية عليها .

تحقيق الأمانى القومية ومساعدة الأمم الناشئة على نيل استقلالها واستكمال نهوضها .

وتأتى بعد الخطوة السابقة خطوة ثانية، فإن للبلاد العربية مطالب قومية وحقوقاً سياسية لم تنلها بعد. ولا فائدة من ذكر العوامل التاريخية والحوادث التى أدت إلى انتقاص هذه الحقوق واغتصابها ولكن الذى يفيد ويجدى الآن أن نواجه الأمر الواقع والوضع القائم ونجاهد فى سبيل تحقيق هذه المطالب وتخليص تلك الحقوق، وعلى مؤتمر الوحدة العربية ولجنته التحضيرية أن يرسم للشعوب والحكومات طرائق هذا الجهاد المشترك وأن يقرر تكاتف الجميع فى سبيل كسب هذه القضايا التى منها :

١. العمل على استكمال استقلال مصر والمحافظة على وحدة وادى النيل، فكل محاولة يراد بها انتقاص استقلال مصر أو تقييد هذا الاستقلال أو تمزيق وحدة وادى النيل عمل ظالم، يؤثر فى كيان الأمة العربية العام، وعلى كل شعب عربى وحكومة عربية أن يشد أزر مصر وحكومتها

وشعبها فى سبيل هذه القضية حتى تفوز فيها. ويجب أن يكون مفهوماً للرأى العام العربى العالمى كله أن مصر حين تتمسك بوحدة وادى النيل لا تعتدى بذلك على شعب من الشعوب ولا تستبعد أمة من الأمم ولا تطمع فى توسعة حدودها، أو زيادة مساحة أرضها أو تنمية ثروتها على حساب غيرها، فكل هذه المزاعم باطلة لا وجود لها، ولكن مصر حين تتمسك بالنيل الأعلى تحقق بذلك وحدة شعبها. فمصر والسودان أمة واحدة. وتحافظ على صميم كيانها وتضحى بكثير من مواردها وثروتها وجهودها. وأن حاجة هذا الجزء من الأرض إلى مصر لأعظم بكثير من حاجتها هى إليه

٢. العمل على استكمال استقلال البلاد الشامية على اختلاف أقسامها. وإذا أصرت لبنان ومثيلاتها على المحافظة على استقلالها فليكن ذلك لها حتى يقنعها الزمن وتثبت لها الحوادث أن من خيرها بل من ألزم اللوازم لها أن تعود إلى أحضان أمها "سورية الكبرى" وأن ذلك لقريب فنحن فى عصر الوحدات القوية والكتل الشعبية الجامعة – وما دامت ستتفق مع غيرها من الشعوب العربية على كل مقومات الوحدة العملية فحسبنا ذلك منها الآن ولعل من الخير للمؤتمر وللبلاد الشامية خاصة والعربية عامة ألا تجعل من هذه القضية عقبة تصطدم بها فى فورة الشعور وثورة الحماسة حتى يفصل فيها الزمن والزمن جزء من العلاج .

٣. العمل على حل قضية فلسطين حلا يتفق مع وجهة النظر العربية ويؤدى إلى سلامة هذا الجزء من الوطن العربى – وهو منه بمثابة القلب من الجسد – وإلى المحافظة كل المحافظة على أن يظل عربياً خالصا وإلى دفع العدوان اليهودى وذبذبة السياسة الدولية عنه بكل الوسائل، فإن العرب جميعاً وفى مقدمتهم أعضاء اللجنة يدركون مدى الأخطار العربية التى تهدد كيان الأمة العربية وتحطم آمالها إذا استقرت قدم اليهود فى فلسطين. والشعوب العربية كلها قد وطدت العزم على أن تستنقذ فلسطين مهما كلفها ذلك من الجهود والتضحيات .

وإننا لنعطف على اليهود فى محنتهم ولكن ليس معنى هذا العطف أن يكون إنصافهم بظلم غيرهم وإيواؤهم بإخراج سواهم أو مضايقتهم فى أوطانهم. وفى ممتلكات الدول الحليفة وأراضيها ما يتسع لاضعافهم وما هو فى حاجة ماسة إلى كفايتهم ونشاطهم .

٤. مساعدة بقية أقطار الجزيرة العربية "العراق وملحقاتها – والمملكة العربية السعودية وملحقاتها – واليمن وملحقاتها على استكمال استقلالها ونهضتها ودفع الدسائس السياسية المختلفة عنها وبخاصة وهى الآن فى مهب عاصفة قوية من التنافس الدولى الشديد سياسياً واقتصادياً واجتماعياً هى أمامها أحوج ما تكون إلى من يشد أزرها ويبصرها بمواقع الخير والشر لحاضرها ومستقبلها وليست هناك فرصة للنظر والاختيار أبدع ولا أوسع من هذه الفرصة التى إن أفلتت اليوم فلن تعود إلا بعد حين .

٥. العناية بتحرير الأقطار العربية فى شمال أفريقيا وإدخالها فى دائرة الوحدة. فلوبيا بقسميها "برقة وطرابلس" يجب أن تعود إليها حريتها واستقلالها وأن تظل قطراً واحداً تحت لواء حكومة من أهلها بعد أن زال عنها سلطان الغاصب المعتدى وأن شأنها فى ذلك شأن الحبشة سواء بسواء فإذا كان البريطانيون قد حاربوا وحدهم الطليان حتى أجلوهم عن الحبشة ثم سلموها موحدة مستقلة لإمبراطورها السابق فإن من واجبهم وقد طردوا هذا العدو البغيض عن لوبيا بمساعدة أهلها ومساعدة الشعوب العربية لهم فى ذلك أن يعيدوها لأهلها موحدة مستقلة كذلك وليس هناك ما يدعو إلى تمزيق وحدتها وتقسيم أرضها ومعاملتها بغير الأسلوب الذى عوملت به سابقتها .

وتونس والجزائر ومراكش بلاد عربية وقعت تحت الاستعمار الفرنسى باسم الحماية تارة والاستعمار تارة أخرى وقد جاهدت فى سبيل حريتها واستقلالها جهاد الأبطال ولم تعترف بهذه الأوضاع التى رسمتها لها السياسة الاستعمارية فى يوم من الأيام. ثم ساهمت أخيراً فى المجهود الحربى للحلفاء مساهمة عظيمة أطلقت ألسن زعماء الأمم المتحدة بالثناء عليها وسجلها المستر تشرشل فى خطبة بالإعجاب والأكبار، وما كان جيش فرنسا الحرة الذى حارب فى صفوف الحلفاء فى شمال أفريقيا وفى إيطاليا وفرنسا إلا

هؤلاء الجنود البواسل من أبناء هذه الديار العربية الصميمة ومن واجب المؤتمر العربى أن يطالب بحقوق هذه البلاد كاملة وأن ينقذ من براثن الظلم والعدوان عشرين مليونا من العرب لا زالوا متمسكين بعروبتهم مطالبين بحرية بلادهم مهما أراد المستعمرون أن يظهروهم بغير هذا اللون – لقد حاول هؤلاء الغاصبون خلال هذه السنوات الطوال أن ينالوا من عروبتهم بالثقافة الأجنبية ومحاربة اللغة العربية والغزو الاجتماعى، وأن ينالوا من وطنية هؤلاء العرب المجاهدين بالتجنيس وبالإرهاب والضغط الشديد، وأن ينالوا من دينهم بالتبشير ومقاومة الأوضاع الإسلامية بمثل الظهير البربرى فلم يُجْدِهم كل ذلك نفعاً وما زال شمال أفريقية وسيظل عربيا مسلما .

ونرى أن من واجب اللجنة أن تدعو إلى المؤتمر ممثلين من أبناء هذه البلاد ومن أبناء فلسطين ليبسطوا أمامه قضاياهم ومطالبهم .

وتحدثت المذكرة عن "**الكيان السياسى للأمم العربية المتحدة**" ولاحظ كلمة "الأمم العربية" وليست "الدول العربية" فقالت :

وتأتى بعد الخطوة السابقة خطوة ثالثة يكمل بها بناء الوحدة العربية تلك هى لون الكيان السياسى العام لهذه الحكومات العربية المتحدة – ولا نظن أن الوقت قد حان أو أن الظروف قد تهيأت لمثل هذا البحث كما لا نظن أن من مهمة المؤتمر أن يختار شكل الحكومات فإن ذلك متروك للشعوب نفسها يتخير كل شعب منها لنفسه النوع الذى يريد ولكن الذى يجب أن يعمل له المؤتمر بهذا الخصوص ويقرره من الآن :

أن يحتفظ بالحكومات العربية المستقلة بحق التمثيل فيما إذا أجرى استفتاء للشعوب العربية المحررة أو التى لم تستقر حكوماتها الوطنية بعد .

وإن يقرر من الآن لونا من ألوان الارتباط السياسى بين الحكومات العربية كمجلس استشارى أعلى تستطيع بواسطته أن يتصل بعضها ببعض بطريقة دائمة منظمة ويكون أساساً لوحدة أتم وأكمل فى المستقبل إن شاء الله

إن مطالعة هذه النبذات من مذكرة الإمام البنا توضح الفرق بين فكر علمى منظم هادئ، وبين شعارات موثنة وجماهير هادرة وغوغائية بالروح بالدم الخ ...

موقف الحكم الإسلامى من الأقليات :

إن النقطة الحقيقة التى تستحق المعالجة هى موقف الحكم الإسلامى من الأقليات غير الإسلامية فى الوطن العربى.. فقد آثر البعض تجاهلها على أساس أنها حساسة وشائكة، ولم يحسن بعض الدعاة الإسلاميين فهمها فعرضوها بطريقة شائهة فزادوا الطين بلة.. بينما جعل آخرون من هذه النقطة "البعبع" الذى يخوفون به الناس من الدعوات الإسلامية، والشبح الذى يلوحون به للحكام فيتملكهم الذعر بدعوى شق وحدة الأمة وإضرام الفتنة الطائفية، وهذه مزاعم يجب أن تجابه بشجاعة فليس هناك من الموضوعات ما يفرض على الكاتب الصمت أو ما يثير فى نفسه الخوف فإنما الأمور حق أو باطل.. خطأ أو صواب ..

لقد كان محور التخريب الأوربى من قديم يقوم على **خط رئيسى هو توهين المقوم الإسلامى لدى المسلمين وتعزيز المقوم المسيحى لدى المسيحيين**. وفى الوقت الذى كانت أوروبا تعيب على المسلمين جعل الإسلام مقوماً من مقوماتهم القومية فإنها كانت تدفع المسيحيين لاعتبار المسيحية هى مقوم حياتهم الوحيد، كمحاولة تأزيم العلاقة ما بين المسلمين والمسيحيين فى الوطن العربى وإقحام طابع من التعصب الذى اشتهرت به أوربا وإيجاد ثلمة بين الأكثرية المسلمة والأقلية المسيحية .

وتفاقمت هذه القضية نتيجة لعدد من العوامل منها تجاهل القيادات السياسية فى الوطن العربى للإسلام كقاعدة المجتمع العربى، وجهل قيادات الدعوات الإسلامية بالموقف الأمثل.. وهذه المحصلة المؤسفة ما بين الجهل والتجاهل.. أعطت القضية حساسية مرضية وسدت الطريق أمام الحل السليم

بالإضافة إلى هذا فإن الجيوب الاستعمارية الباقية فى الوطن العربى أخذت تضرم فى هذه القضية وتغرس فى المسيحيين عداوة المسلمين وتصورهم بصورة المتعصبين القساة.. وهذا أمر ملموس وإن عسر إثباته بمقررات تحريرية لأن مثل هذه الاتجاهات تدخل فى باب التاريخ غير المكتوب والتواصى السرى.. ولكن يمكن مع هذا العثور على بعض الشواهد

كالتى رواها الأستاذ أسعد داغر فى كتابه "مذكراتى على هامش القضية العربية" عندما كان طفلاً صغيراً فى مدرسة عينطوراً للأباء العازاريين فى لبنان ودخل المدرسة طفل صغير من أسرة مسلمة يدعى رياض الصلح، وقامت صداقة وطيدة بين الطفلين فى الدراسة واللعب ولاحظ ذلك ناظر المدرسة وهو فرنسى.. فنادى أسعد داغر وسأله :

- مع من تلعب .
- مع الصلح .
- لماذا لا تلعب مع غيره .
- ألعب معه ومع غيره.. والآن كنت ألعب معه .

فأمسك بشعر رأسى وشده وهمس فى أذنى ..

- كيف تفعل هذا وأنت مسيحى .
- وهل فى ذلك ضرر.. وما هو ..
- أنت لا تعرف على ما يظهر.. اقترب ..

ودنوت منه فقال بصوت خافت كمن يفشى سراً .

- ألا تعرف أن الصلح هذا مسلم .
- ما معنى مسلم يا أبت ؟
- ألم تذهب قط إلى بيروت يا بنى ..
- ذهبت إليها مرة برفقه والدى .
- المسلم فى بيــروت هو الذى يطعن المسيحى.. بالخنجر من خلف[1] " .

وصدق الطفل البرىء هذا الادعاء وجعل لا يلعب أو يسير مع الصلح إلا بعد أن يتخذ احتياطات حتى لا يطعنه الصلح بالخنجر "بأن أجعل كتفى دائماً وراء كتفه لكى لا يستطيع أن يغدر بى ويطعننى فى ظهرى".. حتى فند له هذا الاتهام معلم آخر .

---

(١) مذكراتى على هامش القضية العربية ص٢٠ .

فلنوضح أولاً: أن أى حكم إسلامى لابد وان يكون أقرب إلى المسيحية من أى حكم آخر حتى لو كان هذا الحكم الآخر مسيحيا، ذلك أن الإسلام هو الدين السماوى الوحيد الذى يعترف بنبوة المسيح وبتولة العذراء والإسلام يقر أن المسيح جاء بمعجزة وحمل كتاباً سماويا مقدسا هو الإنجيل والإيمان به توجيه إلهى للمسلمين تضمنه القرآن أكثر من مرة فموقف الإسلام من المسيح لا يمكن أن يؤذى إحساس مسيحى لأنه وإن رفض الاعتراف بالمسيح ابنا لله.. فإنه يقدم له الاحترام الجدير برسول كريم منزل وحامل لأحد الكتب المقدسة الثلاثة، وينظر إلى السيدة مريم العذراء كسيدة نساء العالمين .

ومن ناحية أخرى فإن السياسة المقررة للحكم الإسلامى تجاه المسيحية واضحة وهى منح الحرية الدينية والاجتماعية وما يتعلق بالتقاليد الخ... لهم حسب اعتقادهم، وحتى فى الحرب التى يسلم الجميع لها بالاستثناء والتى تفرض كل الحكومات فيها أحكاماً عرفية وتقيد الحريات فإن توجيه النبى صلى الله عليه وسلم للجيوش الإسلامية صريح فى ترك الأديرة والرهبان وعدم المساس بها. ولم يحدث أن شكا المسيحيون فى ظل أى حكم إسلامى جنفا أو حيفا إلا إذا صدر من حاكم شاذ لا يسلم المسلمون أنفسهم من شذوذه أو عسفه .

والقول بأن الإسلام أفضل للمسيحيين من حكم مسيحى حقيقة مقررة وليست فرضا نظرياً وقد حدثت بالذات بالنسبة لمصر.. فقد اضطهد الرومان وهم مسيحيون الأقباط لاختلافهم وإياهم فى المذاهب وألجئوا البطريرك إلى الفرار وعندما جاء عمرو بن العاص منح الأقباط حريتهم الدينية التى لم يتمتعوا بها فى ظل الحكم الرومانى المسيحى وعاد البطريرك مكرماً، وكان موضع الاحترام والتبجيل والمشاورة من عمرو بن العاص. وفى الدول الأخرى استأصل الفرنسيون الكاثوليك الفرنسيين الهوجونوت فى مذبحة سانت بارثلمى، وأوقع الإنجليز البروتسننت بالإنجليز الكاثوليك من المذابح ما جعل الملكة مارى تلقب بالدموية وما ظلت بقاياه حتى الآن فى ايرلنده، ويمكن ضرب أمثله أخرى عديدة فى ألمانيا أو أسبانيا أو روسيا أو غيرها من الدول الأوربية .

ولنوضح ثانيا أن الشك فى عدالة الإسلام أو الضيق بحكمه لم يكن فى أغلب الحالات – إن لم يكن فى كلها – صادراً من المسيحيين العرب، وبقدر ما يكون المسيحيون عربا تستقيم العربية على ألسنتهم بقدر ما يكون التجاوب بينهم وبين إخوانهم المسلمين، وبقدر ما لا يتأثرون بالدعايات الأوربية أو الحضارة الأوربية التى لم تعرف التسامح، ومصداق ذلك سلبا وإيجابا موارنة لبنان.. وقبط مصر إن موارنة لبنان الذين تأثروا بالفرنسية حتى سلختهم من العربية وأصبحوا يتحدثون الفرنسية ويتأثرون بالمدنية الفرنسية أكثر مما يستشعرون الحضارة العربية أصبحوا ينظرون إلى المسلمين نظرة الشك والعداء وعندما قامت الحرب الأهلية ارتكبوا من الفظائع ما تقشعر له الجلود.. أما قبط مصر الذين عايشوا الفتح الإسلامى منذ بدايته واندمجوا فى المجتمع العربى فإنهم لم يستشعروا أبداً أية حساسية نحو الحكم الإسلامى أو أى وحشة أو غربة بينهم وبين إخوانهم المسلمين وقد كان ولا يزال التقدير متبادلاً والمشاركة العاطفية فى المناسبات الدينية تقليدا مقررا وسائداً .

وقد وجهت مجلة الدعوة فى عددها الصادر فى فبراير سنة ١٩٧٧ سؤالين إلى عدد من أقطاب الطائفة المسيحية (على اختلاف مذاهبها) هما :

أ- إذا كان الإسلام والمسيحية ملتقيين فى تحريم الزنا – مثلاً – ومحاربته، فهل عندكم مانع فى تطبيق حد الزنا وبقية الحدود الإسلامية الأخرى على من استوجب إقامتها عليه فى المجتمع المصرى. وهل ترى فى تطبيقها ما يمس حقوق المسيحيين أو يضايقهم ؟ .

ب-من خلال دراستكم للتاريخ ماذا ترون فى حكم الإسلام بالنسبة للاقليات من ناحية العبادة والأموال والأعراض ؟ .

عن السؤال يجيب الكاردينال أصطفانوس بطريرك الأقباط الكاثوليك .

"الأديان السماوية تشير إلى تحريم القتل أو الزنا وإلى المحبة والمعروف أن من يحب الله يحب أخاه. ومن يدعى أنه يحب الله ولا يحب أخاه كاذب فالقتل والزنا والسرقة إلى آخر المنكرات ضد المحبة لأن الله خلق الإنسان ليكون مستقيما غير منحرف، ويستفيد من التعاليم الإلهية ولذلك

فالذى يشذ عن نظام الله وتعاليمه بعد أن تكفل له أسباب العيش ومستلزماته – يجب أن تطبق عليه حدود شريعة الله ليرتدع ويكون عبرة لغيره وحتى لا تعم الفوضى عندما يقتل أحد أخاه ولا يقتل أو يسرق ولا تقطع يد أو يزنى ولا يقام عليه حد الزنا – وهذا ما وجدناه فى القوانين الوضعية التى تجامل الناس وتلتمس لهم مختلف الأعذار مما جعل المجتمع غير آمن على نفسه أو ماله أو عرضه وأعود فأكرر أن تطبيق حدود الشريعة الإسلامية ضرورى على الشخص وعلى المجتمع حتى تستقيم الأمور وينصلح حال الناس. وليس فى تطبيقها أبداً ما يمس حقوق المسيحيين أو يضايقهم" .

كما أجاب غبطة الكاردينال عن السؤال الثانى فيقول :

"إن الذى يحترم الشريعة الإسلامية يحترم جميع الأديان، وكل دين يدعو إلى المحبة والإخاء وأى إنسان يسير على تعاليم دينه لا يمكن أن يبغض أحدا أو يلقى بغضاً من أحد ولقد وجدت الديانات الأخرى – والمسيحية بالذات – فى كل العصور والتى كان الحكم الإسلامى فيها قائماً بصورته الصادقة ما لم تلقه فى ظل أى نظام آخر من حيث الأمان والاطمئنان فى دينها ومالها وعرضها وحريتها" ..

أما الأنبا غريغوريوس أسقف البحث العلمى والدراسات العليا اللاهوتية بالكنيسة القبطية وممثل الأقباط الأرثوذكس فقد أجاب عن السؤال الأول السابق قائلاً :

"إن تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية فى مصر أمر لا اعتراض عليه فالشرائع السماوية نور وهداية للبشر ونحن نؤمن أن الدين لم يعط للناس إلا ليكون عونا لهم لتصير حياتهم به أفضل مما تكون بغيره والهدف من الوحى الإلهى تحديد الطريق الذى يساعد الإنسان على أن يعيش بمبادئ الدين سعيداً كريماً" .

وأضاف الأنبا غريغوريوس قائلاً "رغم أن الديانة المسيحية ليس فى نصوصها قطع يد السارق أو قتل القاتل الخ ...

إلا أننا كمسيحيين لا نعارض فى تطبيق حدود الشريعة الإسلامية فى مصر إذا كانت هذه رغبة إخواننا المسلمين وفى نظرى أن هذا لن يتحقق كما يجب إلا إذا ضمنا للقضاء سيادته الكاملة التى تعطى له حرية التحقيق الشامل والتقصى للجريمة وأسبابها" .

أما السؤال الثانى فيجيب عنه أسقف البحث قائلاً :

"لقد لقيت الأقليات غير المسلمة والمسيحيون بالذات فى ظل الحكم الذى كانت تتجلى فيه روح الإسلام السمحة كل حرية وسلام وأمن فى دينها ومالها وعرضها" .

أما القس برسوم شحاته وكيل الطائفة الإنجيلية فى مصر فكان رده على السؤال الأول "أن الأديان كافة تحرم الجريمة والنفس الإنسانية يجب أن تعالج من الوقوع فى الجريمة وقبل الوقوع بكل وسائل الإصلاح والتربية الجادة القائمة على إحياء القيم الروحية وسريانها فى النفوس والارتباط بالشرائع السماوية فى إرشادها وهديها أما النفوس المتحجرة والقلوب القاسية التى لا يجدى معها النصح والإرشاد والتوجيه فهذه تعتبر شاذة وجرثومة فى جسم المجتمع يجب إنقاذه منها.. وهنا لابد من تطبيق حدود الشريعة الإسلامية لتحقيق العدالة والسلام والحب فى المجتمع. ويُطالَب فى نظرى بدقة التنفيذ الجاد لهذه الحدود وزير الداخلية الذى يمثل سلطة الأمن شخصياً. مع ضرورة أن تعود للقضاء سيادته وحرمته التى تعطيه الحرية الكاملة فى البحث والتقصى عن كل حادثة أو جريمة" انتهى .

لم يقدم هؤلاء السادة شهادتهم تلك مجاملة، أو موافقة، أو مصانعه، أو دفعاً لحرج كما قد يظن البعض، لأن المبتدئين فى المسيحية ناهيك بأقطابهم يعلمون كلمتى المسيح "أعط ما لقيص لقيصر، وما لله لله" و"مملكتى ليست على هذه الأرض" كما يعلمون بتوجهات قطبى المسيحية بول وبطرس للمسيحيين بالتزام الطاعة للحكام غير المسيحيين (وقد جاء توجيه بول عندما كان القيصر نيرون حاكماً) وإخلاص الخدمة فى الدول التى يعيشون عليها ما لم تتدخل فى ديانتهم وعقائدهم. وقد كان الخط المقرر للكنيسة المصرية الأرثوذكسية هو هذا وعرف كبار بابواتها بكياسة وذكاء بحيث اكتسبوا محبة

حكام مصر الذين اسبغوا عليهم الحماية وتبرعوا لهم بأراضى وأموال طائلة واعتمدوا عليهم بدءاً من محمد على فى عمليات الصيرفة الداخلية التى توارثها الأقباط. وظل ذلك حتى ولى كرسى الكنيسة الأرثوذكسية البابا شنودة الذى كان لديه طموح للنهضة بالكنيسة القبطية والطموح بصفة عامة له طبيعة دنيوية. وقد جاء توجيه القرآن للرسول أن لا يطمح إلى الاستكثار من الأتباع أو الحرص على إسلام شخصيات هامة، كما وجهه لأن لا يبخع نفسه إن لم يؤمنوا بالإسلام. لأن الهداية من الله، والله تعالى أدرى بالمهتدين. وكانت نتيجة طموح البابا شنودة أن اصطدم مع الرئيس السادات الذى أمر بإبعاده إلى أحد الأديرة وكانت تلك سابقة غير معهودة، فقد كان الخديوى هو الذى أعاد البابا كيرلس الخامس عندما قرر المجلس الملى إبعاده، ولم يقبل البابا أن يعود إلا بعد أن تأكد من أن الأمر قد صدر من الخديوى .

وكان من نتيجة سياسة البابا شنودة أن "عقد الأقباط فى الإسكندرية فى ١٧ يناير (كانون الثانى) ١٩٧٧، أول مؤتمر من نوعه فى تاريخ مصر الحديث، فى الإسكندرية حضره البابا شنودة، الذى اكتسب منذ انتخابه للكرسى البابوى سنة ١٩٧١، شعبية كبيرة بين الأقباط. وقد لعب دورا بارزا فى تنظيم هذا المؤتمر، الأنبا صموئيل، المسئول عن العلاقات الخارجية للكنيسة القبطية .

وبحث المؤتمر "حرية العقيدة" و"حرية ممارسة الشعائر الدينية" و"حماية الأسرة والزواج المسيحى" و"المساواة وتكافؤ الفرص وتمثيل المسيحيين فى الهيئات النيابية" و"خطر الاتجاهات الدينية المتطرفة" .

وقدم المؤتمر إلى السلطات عدة مطالب منها: "إلغاء قانون الردة" و"العدول عن التفكير فى تطبيق قوانين مستمدة من الشريعة الإسلامية على غير المسلمين" و"إلغاء القوانين العثمانية التى تقيد حق بناء الكنائس" و"استبعاد الطائفية فى تولى وظائف الدولة على كل المستويات" .

ومن المؤسف أن هذه السياسة كانت فى أصل مواقف مجموعة من الأقباط هاجروا إلى كندا والولايات المتحدة وجعلوا همهم إشاعة اضطهاد الأقباط فشوهوا سمعة بلادهم بالباطل وأساءوا إليها .

* * *

والصورة المثلى إذن لمعالجة هذه القضية هى استبعاد الحساسيات تماماً وإطراح التجاهل وإقامة العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين فى الوطن الواحد على أساس المساواة التامة فى الحقوق والواجبات وعلى التقدير المتبادل وهو أمر يسمح به بل يحض عليه الإسلام ولا يوجد حساسية أو غضاضة بالنسبة لغير المسلمين على ما أوضحنا وأن المواطنة لا يمكن أن تكون إسلامية، أو مسيحية وإنما هى تتبع الوطن، أى الأرض والمكان ..

إن من الخطأ الجسيم أن نعطى القضية حجما أكبر مما لها وأن نحرص على نفى مشكلة غير موجودة بالحديث الممل عن الصليب والهلال، الكنيسة والمسجد، "رجال الدين" من الأقباط والمسلمين ..

ونحن نؤمن إيمانا عميقاً بأن هذه الظاهرة التى هى محل الاستحسان والتشجيع ليست فى مصلحة الطائفة القبطية بالدرجة الأولى، لأنها تغريها – أو حتى تغويها – بتطلعات قد تجاوز ما توجبه طبائع الأمور، كما أنها تسىء إلى فكرة وحدة الأمة من حيث تريد لها الخير، لأنها توحى كما لو أن مصر مثل قبرص أو لبنان. وكما لو أن الطائفة القبطية تعادل أو تقارب الأغلبية الساحقة المسلمة، وكما لو أن هذه البلاد لها دينان رسميان يمثلان على قدم المساواة فى كافة المحافل والمناسبات، وليس هذا من الوحدة فى شىء إنه يضرم الازدواجية ويغذيها ويصيب الوحدة فى الصميم ..

فهل فكر المسئولون فى هذا ؟ هل فكروا فى أن حرصهم على العدالة للأقلية يوقع الظلم بالأكثرية لأنهم يساوونها بالأقلية؟ هل فكروا فى أنهم فى ادعائهم الوحدة الوطنية يعمقون مشاعر الطائفية ..

إنه لمن المهم أن يعلم الأقباط إنه لا يمكن أن يأكلوا الكعكة، وفى الوقت نفسه يحتفظون بها، فإذا أرادوا التركيز على صفتهم الطائفية الخاصة. فإن هذا سيودى بدعوى الوحدة القومية. وإذا أرادوا الوحدة القومية فعليهم أن يحصروا صفتهم الخاصة فى إطار الدين لا الدولة.. وأن يستبعدوا الحساسية نحو المسلمين .

إن المسيحية هى دين الحب، والحب ليس بالطبع هو حب الذات، وإلا لأصبح أنانية، وإنما هو حب الآخر والحساسية تصب فى الذات، فيفترض – حتى من الناحية المسيحية – التجرد منها، وقد كان هذا هو مسلك الكنيسة المصرى التقليدى وسياسة آبائها الكرام حتى غير هذه السياسة الأنبا شنودة .

إن تجارب التاريخ توضح لنا أن الممالأة، أو المجاملة، أو التنازل من جانب الأغلبية فى حقوقها المشروعة يمكن أن توجد مشكلة مستعصية فى المستقبل تبوء بائمها الأقلية التى أريد مجاملتها والوقائع الاجتماعية والتاريخية ليست سراً، ولا تثير حساسية. فهذا البلد دينه اليوم الإسلام.. وأمجاده وتاريخه وتشريعه الخ... كلها استمدت من الإسلام طوال ألف وأربعمائة سنة. والأغلبية الساحقة من سكانه مسلمون. وإلى جانب هذه الأغلبية توجد أقلية قبطية لها وزنها ولها طبيعتها الخاصة التى لا تعزلها عن الأغلبية المسلمة ومن حق الطائفة القبطية أن لا تضار فى حريتها الدينية، وأن يتمتع أفرادها بكافة حقوق المواطنين، وهذا أمر يوجبه الإسلام وتكفله الدولة الإسلامية باعتراف الأقباط أنفسهم وبمنطق الوقائع .

ولكن هذا كله يجب أن لا يكون سببا فى أن يستشعر الأقباط حساسية إزاء الإسلام، ومن غير المستساغ مثلاً أن يشير كاتب قبطى إلى أن السادات أضاف إلى اسمه الشائع "أنور السادات" كلمة "محمد" التى تسبق أنور السادات ويرى فى ذلك مؤشراً له دلالة تنعكس عليهم. وقد لا نستطيع أن نجردهم من حساسية ولكن يجب أن لا تبلغ هذه الدرجة، ولا تكون على حساب المقوم الإسلامى أو سببا فى تمييعه وتوهينه لأن الإسلام لا يضير الأقباط فى شيء على العكس إنه هو الذى يقرر لهم المواطنة كاملة، ويحمى حقوقهم الدينية الخاصة من إرادة الأغلبية بحكم القرآن، والمقوم الإسلامى بعد هو جذر المجتمع المصرى فتوهينه لن يفيد الأقباط وسيضر المسلمين وليس هذا من السياسة الرشيدة الواقعية الشجاعة فى شيء .

الفصل الثالث
الموقف من الاشتراكية

تتفق كل المذاهب الاشتراكية المعروفة فى أنها أوروبية الأصل، بمعنى أنها نبتت فى التربة الأوروبية وتعود جذورها وملابساتها إلى النظم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية الأوروبية. فتصويرها للإقطاع مثلاً تصوير أوروبى خالص وفكرتها عن الدين هى الفكرة عن الكنيسة المسيحية الأوروبية، والرأسمالية فيها هى الرأسمالية التى قامت فى إنجلترا من النصف الثانى للقرن الثامن عشر.. ولما كان معظم المفكرين الاشتراكيين الأوربيين كبقية الأوروبيين جهلة بالإسلام وتاريخ الشرق العربى والإسلام، وأن تاريخ الحضارة كما تصوروا يبدأ من الحضارة اليونانية، فالرومانية، فحركة الرنيسانس فإنهم تصوروا أن تنظيرهم للاشتراكية تنظير عام ينطبق على البشرية جمعاء وكل دول العالم – كما وجدوا فى الفلسفة الجدلية عمادا يساند دعواهم .

وعندما بدأ ماركس فى وضع اشتراكيته كان أمامه :

أ- الاقتصاديات البريطانية التى قام بها آدم سميث وريكاردو ومالتس وغيرهم وتوصلت إلى عدد من المبادئ الاقتصادية الهامة كاعتبار العمل أصل القيمة .

ب- الفلسفة الألمانية التى كانت تمر بمرحلة من النشاط والازدهار وتمثلت بوجه خاص فى هيجل وإحيائه لفكرة "الديالكتيك" اليونانية القديمة، أو كما يسمونها "الجدلية" .

ج- التجارب والمحاولات والأفكار الاشتراكية الفرنسية التى حدثت كرد فعل للثورة الفرنسية وما أحدثته من خيبة أمل نتيجة لأنها كانت ثورة البورجوازية الناهضة أكثر مما كانت ثورة الشعب العامل وعبرت عن ذلك كتابات سان سيمون، ولابلان وفورييه وبرودون ومحاولة بابيف وجماعة العدول ..

هذه هى المصادر التى تذكرها الكتب الاشتراكية والتى كانت تحت يدى ماركس عندما بدأ عمله، ولكن هناك مصدراً آخر قلما تعطيه الكتب الاشتراكية حقه من الأهمية، هو الدراسات البيولوجية لتطور المجتمع التى وصلت إلى ذروتها فى كتاب "دارون" "أصل الأنواع" وأعطت ماركس أحد المفاتيح الرئيسية فى فكرته عن الصراع ومكنته من نقله من مجال "الأحياء" إلى مجال "الإنتاج" .

بالنسبة للملابسات التى مرت بالشيوعية، وأنها ولدت ولادة الموتورين فى معسكر الحرب الطبقية، ونظرا للمزاج النفسى للمفكر الذى وضع خطوطها النظرية وظروف حياته، فقد سرى فيها شنآن العداوة مسرى الدم. وأصبحت نوعا من آلهة الانتقام تعمل بالكيد والتآمر عند الضعف والبطش والسحق عند القوة وانتفت منها كلية فكرة الأخلاقيات أو الآداب .

وإلى هذه الحقيقة تعود غربة الاشتراكية عن البيئة العربية أو الشرقية، وأنها تتحدث برطانة غير مفهومة، وتعتمد على تطورات وملابسات لم تحدث - بالصورة التى تعرضها - فى الشرق. ومن هنا جاء تخلخلها، وأن دعاتها الحقيقيين هم من الأجانب، أو من العرب الذين تشربوا الثقافة الغربية أكثر مما تشربوا الثقافة العربية، أو من اليهود، وحتى عندما أدت عوامل معينة لظهور حكم شيوعى فى دول عربية وإسلامية. فإن هذا لم يمس نبض الجماهير ويكسب تجاوبها القلبى واقتصر الأمر على الشلة الحاكمة التى تمسك قبضتها على مقررات الدولة ومواردها من ناحية، بينما تكتسب تأييد الجيش الذى يغلب أنه كان وسيلتها للحكم عن طريق انقلاب عسكرى. وبهذا يتوفر للدولة ذهب المعز وسيفه وتحكم بهما، ولكن بشكل جديد .

وهذا لا ينفى أن الاشتراكية – خاصة قبل أن تتورط فى السلطة وديكتاتوريتها الكريهة – مثلت الضمير الأوروبى، فى تلك الفترة التى تخلت فيها الكنيسة عن دورها الإنسانى، أو ضعفت عن القيام به، وعندما انحاز علماء الاقتصاد والسياسة إلى الرأسمالية الصاعدة ورأوا أن تعاسة العمال هى قسمتهم فى الحياة .

وفى تاريخ الاشتراكية وتطورها يجب التفرقة بين مرحلتين: المرحلة الأولى التى كانت الاشتراكية فيها دعوة مفتوحة أسهم فيها عدد كبير من المفكرين فى إنجلترا وفرنسا وألمانيا والمرحلة الثانية التى بدأت بماركس وختمت بلينين، والتى يمكن أن نسميها المرحلة الماركسية التى اتسمت بالاقتصار على الفكر الماركسى باعتباره "الاشتراكية العلمية" وأن ما عداه اشتراكية مثالية أو "طوبية" .

فى المرحلة الأولى كانت الاشتراكية ملاذاً فكرياً يلوذ به كل الأحرار وكل ذوى القلوب والضمائر التى تعنى بالقضية الاجتماعية، ولعل أبرزهم كان الإنجليزى روبرت أوين الذى بدأ فى صباه عاملاً ثم أصبح صاحب عمل ولكنه صفى أعماله كصاحب عمل ليقود أكبر تكتل عمالى شهده القرن التاسع عشر وهو الاتحاد التضامنى الأعظم فى إنجلترا، وليبدأ أول تجربة عملية لتحقيق قدر من العدالة للعمال فى رفع الأجور وتقصير ساعات العمل وتثقيف العمال، ثم ابتدع فكرة التعاون بديلاً عن الرأسمالية المتنافسة وحاول أن يوجد مجتمعاً تنتفى فيه سوءات المجتمع الرأسمالى فى بريطانيا، وفى الولايات المتحدة وكان هو فى بعض الأقوال أول من استخدم كلمة "اشتراكية". وظهر فى فرنسا مفكرون كبار مثل "برودون" وفورييه و"لابلان" كما ظهر فى ألمانيا لاسال، وبصفة عامة فإن الاشتراكية فى هذه المرحلة كانت تمثل العدالة وإنصاف العمال من الاستغلال الرأسمالى بمختلف الوسائل

وفى المرحلة الثانية: ظهر ماركس، كان عبقريا موسوعى الثقافة (كان يحفظ شكسبير ونال درجة الدكتوراه عن الأدب اليونانى، كما كان تلميذا لهيجيل) واستطاع ماركس أن يتوصل إلى صيغة علمية حسابية يمكن

بها ضبط "فائض القيمة" التى يستحوز عليها الرأسمالى وأدت به طبيعته التنظيرية لأن يبدع فلسفة "المادية" الجدلية والمادية التاريخية، ولأن يعتبر أن طرق وملكية وسائل الإنتاج هي العامل الحاسم فى تطور التاريخ وأن كل نظام إنتاجى يلد نقيضه طبقاً للجدل الهيجلى وأن الرأسمالية ستوجد الاشتراكية التى تقضى عليها (أى على الرأسمالية) بثورة البلوريتارية. باختصار جعل من الاشتراكية "نظرية محددة محكمة" بعد أن كانت دعوة مفتوحة حرة ..

إن حديثنا عن الاشتراكية يتركز حول هذه المرحلة، أعنى التنظير الماركسى والتطبيق اللنينى لأنهما هما ما يخطر فى ذهن الناس عندما يقال الاشتراكية، ولأن ما ذهب إليه الاشتراكيون قبل ماركس قد عفى عليه الزمان، ولم يعد يذكر بين الجماهير وإنما تحتفظ به صفحات التاريخ .

ولما كان المجال ليس مجال شرح الماركسية وتطبيقها اللنينى، ولكن موقف دعوة الإحياء منه فإننا نوجز ما يختلف وما يأتلف من الماركسية مع الإسلام كما تراه دعوة الإحياء .

عناصر الاختلاف

أولا: رفض فكرة الألوهية والخلق :

عندما جعل ماركس المادية هى الأصل الذى تنبثق عنه جدليته فإنه استبعد الإله الخالق. وأصبح لا يرى فى فكرة الألوهية سوى خرافة عريقة أثيرة إلى قلوب الناس. وهذه الواقعة تمثل النقص الرئيسى فى الشيوعية. وهى أصل كل انحرافاتها، ولكن قد يكون من حق "الحقيقة كلها" أن نشير إلى الملابسات التى ساعدت على وقوع هذا الخطأ. إن اللاهوت الكنسى والبناء المعقد للتثليث وتشخيص "الإله" "ابن الله" "أم الله" جعل المفكرين والعلماء فى المجتمع المسيحى ينفضون اليدين من التصوير الكنسى لله، ومن هذه المتاهات الثيولوجية التى لا يكون الفيصل فيها للعقل أو الفطرة، ولكن اللاهوت الكنسى، كما أن الكنيسة وقفت باستمرار إلى جانب النبلاء والملوك

وكان للأساقفة مقاعدهم فى مجلس اللوردات جنبا إلى جنب كبار الملاك والإقطاعيين وعندما قامت ثورة الفلاحين فى القرن السادس عشر فى ألمانيا وقف مارتن لوثر رائد الكنيسة البروتستانتية ضد الفلاحين وأوصى النبلاء بقمع الثورة بكل قسوة. وعزز من وقوف الشيوعية من قضية الدين هذا الموقف أن الأوربيين جميعاً لا يعرفون إلا قليلاً – إذا عرفوا – عن الإسلام وتصويره المعجز للألوهية. لأن الحرب الصليبية عزلت أوربا عنه ..

على أن هذا وإن كان يفسر الجانب الطارئ على القضية، أو يتعلق بدين ما، وليس بالألوهية مطلقا، أو أنه كان موضوع مذهب أو كنيسة، فإنه لا يبرر الفرار من القضية كلها.. وليس من هم أكثر من الشيوعيين حديثا عن الطبيعة وحركتها وقوانينها، ولكنهم يتجاهلون باستمرار السؤال الهام: **ما هى الطبيعة.. هل هى الأجرام السماوية من شموس وأقمار ومجرات.. وهل هى التى وضعت قوانينها بنفسها وألزمتها أن تدور بهذه الدقة، فيكون لها عقل وإرادة.. أو أن هناك من وضع لها هذا.. وإذا لم يكن لها عقل ولم يكن وراءها من يسيرها فهل الصدفة.. وكيف نقبل الصدفة فى عالم الحتميات أو هل هو التطور العشوائى، وهل يمكن لهذا التطور العشوائى أن يبدع "الحياة" أو أن يصل إلى الأحكام والدقة فى الذرات والنجوم والمجرات بحيث تسير كلها تبعا لها من أصغر ذرة لا تبلغ إلا جزءا من ألف جزء من المليجرام حتى أكبر المجرات التى تفصلنا عنها مئات، أو ألوف السنوات الضوئية بل وفى الجسم الإنسانى الذى يكشف العلم يوماً بعد يوم إعجازه المذهل وأحكامه الدقيقة .**

إننا عندما نشهد صورة متقنة لشخص ما أو منظر طبيعى لابد وان نستنتج أن رساما رسمها، ولا يخطر ببالنا أن "الطبيعة" قد رسمتها، وإذا رأينا "سيارة" فلا يمكن أن نتصور أن "الطبيعة" جاءت ببعض الحديد من المناجم والكاوتشوك من الأشجار والزجاج من الرمال وأخذت تعالج هذا كله بدأب واستمرار حتى أخرجت بعد ملايين السنين سيارة ..

إن قصارى ما يمكن أن يصل إليه توالى الملايين من السنين، وهو رأس مال أنصار التطور الذاتى. المادى هو تطوير كائن دنىء.. إلى كائن

ذكى كالإنسان.. ولكنه لا يمكن أن يحل أمرين أولهما إحكام القوانين التى تمسك الأجرام السماوية وتبقى على هذا الكون والثانى سر الحياة. وإنما يمكن لملايين السنين أن تحقق تطورا كميا أو نوعيا لأن الكائن حى ولأن بذرة التغيير كامنة فيه، ولأن الله تعالى وضع النواميس والقوانين لهذا التطور – فهى – أى توالى السنين والأعوام – عامل مساعد، وليست العامل الأصيل. وقد تستطيع ملايين السنين أن تغير من طبيعة بعض المواد من خشب أو معادن فتوجد لنا الفحم والبترول، ولكنها لا تملك وضع النواميس التى تتحرك بها الأجرام السماوية من شموس وأقمار، كما لا تملك أن تضفى حياة على من لا حياة فيه ..

أن قضية الله هى أساسا قضية عقل – فإذا كان هناك عقل وإرادة فثم وجه الله – وهناك النواميس والضبط والالتزام والمقدمات والنتائج، ومن هنا فإن القرآن عندما يحاج المخالفين ويدعوهم إلى الإيمان فإنه يقرعهم "أفلا تعقلون" .

وليس هناك ما يتفق مع العقل أكثر من الآية القرآنية ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ .

ومن الخطأ أن نتصور أن الشعوب فى العصر الحديث فى أوروبا وأمريكا وغيرهما لا تؤمن بالله، وأن المسلمين وحدهم هم الذين يؤمنون بالله. إن شريحة كبيرة من هذه الشعوب تؤمن بالله بصورة قريبة جداً من الصورة الإسلامية التى هى أقرب إلى الفطرة. ولكن لما لم تكن تلك الصورة مرتبطة ارتباطا وثيقا بالدين (لأن صورة الله كما تقدمها الكنيسة المسيحية ليست محل الإيمان الحقيقى لدى أغلبية هذه الشعوب، إما لأنها لا تفهمها، وأما لأنها لا تتقبلها) فإنها فقدت جزءا كبيرا من فعاليتها وما تستتبعه من التزام أو ما توحى به من قيم وإن حال هذا الجزء من الإيمان دون أن تقع هذه الشعوب كلية فى الفراغ الذى لابد وأن يحدثه تجاهل فكرة الله أو اصطناع بدائل أقل بالطبع. ولا يرفض الصورة الفطرية لله فى العالم الغربى إلا المتعنتون الذين غلبهم العنـــاد على أمرهم وجعلهم يصـــرون على باطلهم، ممن وصفهم الله

﴿وَنُنَزِّلُ مِنْ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلا خَسَارًا﴾ .

وفرار الماركسية من التصدى لقضية الألوهية باعتبارها الحل الوحيد المتسم بالعقلانية لمشكلة الوجود: وجود الكون بقوانينه ونظمه البالغة الغاية من الدقة، ووجود الإنسان بعواطفه ومشاعره، وما توفر له من حياة وذكاء وضمير، وتنديد الشيوعية بفكرة الله وإطراحها لفكرة الخلق وعدم تقديمها البديل المقنع.. يمس عمق وموضوعية كل المفكرين الشيوعيين من ماركس فنازلا – وتضعهم من زاوية الإسلام فى معسكر الذين يشترون الضلالة بالهدى ويؤثرون الذى هو أدنى على الذى هو خير. وتشمئز قلوبهم إذا ذكر الله وحده. وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون ويقولون إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر.

وعندما جحدت الاشتراكية وجود الله تعالى وأثر الدين على المجتمع والفرد، فإنها فقدت القيم، والخلق، وضحت بكل ما قدمته الفلسفة من مبادئ كانت هى التى أوجدت الضمير الأوربى ووقعت فى أسوء ما عابته على الرأسمالية من "كلبية" ومن اغتراب، فكما قال المسيح "ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان". وليس من العجيب بعد هذا أن نجد الانتهازية هى قاعدة السلوك والتصرفات سواء صدرت عن أفراد أو عن الحزب أو عن الدولة.. وأن الاشتراكية على يدى لينين وستالين وماوتسي تونج والأحزاب الشيوعية التى قدر لها أن تحكم آسيا وأفريقيا، قد فرضت الإرهاب على شعوبها وتسببت فى هلاك ما يزيد عن مائة مليون إنسان. فأين هذا من الدين الذى يرى أن ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾. إن قداسة الحياة وكرامة الإنسان ما لم يأتيا من الله، فإنهما قد لا يوجدا، وإذا وجدا فإنهما يتعرضان للانتقاص .

ثانيا: سحق شخصية الفرد :

كما تجاهلت الجدلية الماركسية "الله" بالنسبة لتسيير الطبيعة ووضع نواميسها، فإنها أيضا تناست الإنسان ودوره فى المجتمع، ونصيب الإرادة الإنسانية فى تسيير المجتمع وسحقت شخصية الفرد داخل الطبقة، ولا يمكن

أن يوصف هذا الموقف إلا بأنه ردة، أو أنه بالتعبير الدارج "رجعية" تعود بالإنسان إلى أقدم العصور قبل أن تستنقذه الأديان السماوية، وتجعل له "روحا" مقدسة، وضميراً واعيا، وشخصية مميزة، وقبل أن تظهر الثورة الفكرية التى رفعت لواء الحرية وحققتها بالفعل فى كثير من المجالات ..

ففى هذه العصور القديمة اعتقد الإنسان أن الأمر سواء بالنسبة للكون والمجتمع إنما هو قضية الآلهة الغضاب أو قوى الطبيعة النزقة التى صورها له خياله، وإلى حد ما فى يد الحاكم الذى تقمصته هذه الآلهة، فهو وحده صاحب الأمر والنهى، وهو يملك حرية العمل.. وحق الحياة والموت وهو ينعم على من يشاء من بطانته والمقربين إليه فيتمتعون بفضل رضاه بقدر من الحرية والرخاء. أما بقية الناس فقد كانت شخصية كل منهم مطموسة داخل طبقته أو قبيلته، أو أنه يرتبط بعقدة الولاء للأمير أو النبيل ..

وعندما ظهرت المسيحية استنقذت الإنسان من هذا الوضع. وأضفت عليه مسحة من الكرامة نتيجة لصلته بالله وبلورت الضمير والروح، وقدمت الكنيسة تصويراً للكون والمجتمع بدا منطقيا متسما بالاتزان والثبات المطلوبين لاستقرار الأمور، وإن لم يكن صحيحاً. فالإنسان هو سيد الأرض. والأرض هى مركز الثقل فى الكون، وحولها تدور الأفلاك، وهذا الكون كله يسير تبعا لإرادة الله الذى يكافئ المحسن ويعاقب السيئ ووضعت المسيحية معايير موضوعية تسرى على الجميع وتسمح لروح المساواة أن تتخلل هذا المجتمع. وعن هذا المضمون حاربت الكنيسة طوال القرون الوسطى الربا وأنواعا عديدة من البيوع الفاسدة وأوجبت التمسك بالسعر العادل، وفرضت رعاية الفقير على المجتمع، وحاولت أن تؤخر التطور المضاد، بل يمكن القول إنها أخرته بالفعل، فالثورة الصناعية التى حدثت فى القرن الثامن عشر كان يمكن أن تحدث قبل قرن أو إثنين عندما اكتشفت بالفعل القوى المحركة والآلات.. ولكن الحكومة حرمت استخدامها .

ولكن عدداً من العوامل تدخل وغير هذا المسار نتيجة لانفراد الكنيسة بالسلطة، وما أتخمت به من ثراء فبدأت تفسد وأصبح كبار رجالاتها من بابوات وأساقفة وكرادلة فى واد وشعبها وجمهورها من رهبان أو كهان أو

مؤمنين فى واد آخر.. وابتعدت عن القيم التى قامت عليها أول مرة وأصبحت تعمل لحماية مصالحها متعاونة مع الملوك والأرستقراطيات ضد الشعوب والجماهير .

ومن ناحية أخرى، فإن المسيحية نتيجة تركيزها على الروح والخلاص والخطيئة.. ولعدد كبير من العوامل التاريخية الخاصة بنشأتها سمحت بظهور فكر مسيحى يرى أن المسيحية لا يجوز لها أن تتدخل فى شئون السياسة والاقتصاد وأن رسالتها الحقة. هى تخليص الروح بالبشارة والمحبة والدعوة والقدوة، وأن الكنيسة ليس لها أن تتدخل بين الإنسان والله أو أن تكون وصية على ضميره وإرادته وكان لهذه الاتجاهات أسانيدها من العوامل التى أشرنا إليها، ومن أقوال المسيح وقطبى المسيحية بول وبطرس بينما كانت قوى التطور الأخرى تظهر فكراً مسيحياً يمجد العمل والدأب ويدعو إلى التقشف وترى فى النجاح دليلاً على رضا الرب واستقامة الخلق. وكان هذا هو المناخ الذى سمح بظهور "الرأسمالى المتقشف" الذى يحقق نجاحه نتيجة لتراكم الربح وإعادة استثماره، ولم يكن مثل هذا الرأسمالى ليستمتع بالحياة أو يتذوق الترف إلا فى الفترات الأخيرة من عمره، وعادة ما يصطحب ذلك بعمل مسيحى كبناء كنيسة أو ملجأ أو مدرسة الخ... وخلال رحلة طويلة ومتشعبة سمحت هذه الأفكار بعودة الربا والتخلص من رعاية الفقير والتخلى عن الثمن العادل. بالاختصار تهيأ الجو لظهور الرأسمالية .

وكانت الرأسمالية قد بدأت بداية متواضعة فى مهد "البورو" وبفضل روح المغامرة والمجازفة التى تملكت عددا من التجار فبدأت الاكتشافات البحرية وما تلاها من استعمار وتجارة ونهب وسلب وبفضل هذا كله تحقق للتجار "تراكم" رأسمالى ضخم وتمكن الإنسان من تسخير قوى الطبيعة لتحقيق إرادته .

وهكذا تهاوى المجتمع المسيحى القروسطى تحت ضربات القوى المضادة فاستقلت السياسة عن الدين واستقل الاقتصاد عن السياسة وتوجت المسيرة بظهور الرأسمالية وحرية العمل. وظهرت – لأول مرة – شخصية الفرد مستقلة ومتحررة عن الكنيسة والدولة ..

ولكن الرأسمالية أظهرت "الإنسان الاقتصادى" وهو نمط فريد من الكائنات أفرزه الاقتصاد السياسى للرأسمالية، فلا يتحرك إلا بوازع الربح ولا يتحدث إلا بلغة الأرقام ولا يهمه إلا أن يكسب، وهو يدخل معركة ضارية مع العمال. ومع المستهلكين، بل ومع زملائه المنافسين ..

ونتيجة لهذا أصبح الرأسماليون نوعا من الآلهة الغضاب القدامى الذين يستبدون بالناس، فانطمست مرة أخرى شخصية الفرد فى الجماعة بصورة متفاوتة، ولما لم يستطع آحاد العمال الصمود أمام الاستغلال الرأسمالى بدعوا فى تأليف النقابات أو انضموا إلى الأحزاب .

كان هذا هو الوضع عندما ظهر ماركس، ولعله أراد أن يصلح هذا الوضع الأعور، ولكنه خلال معالجته أصاب العين السليمة، فأصبح أعمى ! وفى الوقت الذى أراد أن يحرر الإنسان من الاستغلال، فإنه هوى به أسفل سافلين، أو أنه على حد تعبير "بيتر دركر" "لم يكتف بأن يثبت أن الإنسان ليس حرا فى ظل الرأسمالية، بل إنه ليس لديه أصلاً الملكة ليكون حراً" .

ذلك أن ماركس عندما أخذ من "المادة" وليس الإنسان نقطة البدء، لم ير فى الإنسان سوى كيانه المادى باعتباره حيوانا، ودفعته أبحاث النشوء والتطور التى ظهرت وقتئذ، وتأثر بها عميقا لأن يرى فى الإنسان سليلاً للقردة العليا بفضل الظروف والملابسات وخلال مرحلة طويلة من التطور – استطاع أن يقف على قدميه وأن يطور من يده – وبالذات الإبهام – بحيث اكتسب القدرة على الإمساك بالأشياء – وأصبح عبر ملايين السنين الإنسان المعروف .

وهذا المنطق يختلف اختلافا جذريا عن منطلق الأديان والفلسفات الإنسانية، فالأديان على اختلافها أضفت على الإنسان كرامة مقتبسة من ذات الله، ومن فكرة خلق الله له، فهو فى الإسلام خليفة الله فى الأرض الذى سجدت له الملائكة ويحمل آثار تلك النفثة الإلهية التى وهبت بنى آدم الكرامة، وهو فى المسيحية على صورة الإله الذى أرسل "ابنه" ليفديه. واعتبرت الكتب المقدسة ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا

قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾. وليس هناك ما هو أكثر من تلك الإشارات والرموز دلالة على تكريم الإنسان.. وهو في الفلسفات الإنسانية التي أظهرتها الثورة الليبرالية للفكر الإنساني "**غاية في ذاته**" **وبفضل هذه المعاني التي اصطحبت بالأديان، أصبح للإنسان قداسة خاصة وحقوقا طبيعية – أي بحكم كونه إنسانا ولمجرد كونه إنسانا ..**

ومثل هذه الحقوق، وأنها طبيعية (أي لمجرد كون الإنسان إنسانا) غريبة على الشيوعية التي لا ترى في الإنسان إلا حيوانا متطورا وأنه إذا كان يستحق مزايا معينة، فإنما مرد ذلك للعوامل التي أدت إلى تطويره، فهذه العوامل وحدها وليس الإنسان وإرادته هي مركز الثقل، وهي التي تمضي دون نظر إلى طبيعة الإنسان وإرادته. وهذه العوامل لا تقتصر على العوامل الطبيعية، ولكن أيضاً وبالدرجة الأولى على العوامل الإنتاجية التي تطور وتنشئ علاقات مستقلة تماماً عن إرادة الإنسان طبقا لتلك الفقرة المشهورة من كلام ماركس "خلال الإنتاج الاجتماعي للناس، يدخل الناس في علاقات محددة لا غنى عنها ومستقلة عن إرادتهم علاقات إنتاجية تتطابق مع درجة محددة من تطور قوى الإنتاج المادية" فتطور قوى الإنتاج وعلاقاته تفرض نفسها فرضا على الإرادة الإنسانية التي لا تستطيع شيئاً إزاءها .

وفي ضوء هذه الفكرة يمكن أن نفهم الجمود الذي تملك ماركس إزاء العمال والرأسماليين معا. فمع تعاطفه مع الأولين، ونقمته على الآخرين، إلا أنه كان يرى أن هؤلاء وأولئك ليسوا المتسببين في البأساء، وأن الرأسماليين لا يستطيعون ألا أن يمضوا إلى النهاية – نهايتهم نفسها – وأن العمال، ما لم يربطوا ما بين كفاحهم وتغيير علاقات وملكية الإنتاج، فلن يستطيعوا شيئاً، كما نفهم الاستهانة بالحقوق الإنسانية التي تصطحب بالتطبيق الشيوعي بدءا من لينين حتى الآن، وعلى اختلاف صور التطبيق في مختلف دول العالم، كما يمكن أن نفهم ظهور فكرة "تكييف" الطبيعة البشرية ومحاولة الهيمنة على مكونات شخصية الفرد والعبث بها وهي ممارسة بدأت من أيام لينين مع تجارب "بافلوف" على الكلاب. وكانت محل اهتمام لينين وتمخضت عن عمليات "غسيل المخ" أيام ستالين ..

وفى ضوء هذه الفكرة أيضاً يمكن أن نفهم النظرية الشيوعية عن الحرية التى طالما هلل لها الماركسيون، وكان حريا بهم أن يستحوا منها وتتلخص فى أن الحرية هى العلم بالضرورة .

وقد شرح بليخانوف فى كتابه عن الفرد والتاريخ هذا الاكتشاف الذى اعتبره من ألمع الاكتشافات الفلسفية بأنه "ما إن يبدو الوعى بفضل الحرية فى صورة استحالة العمل غير الذى يؤديه الإنسان بالفعل وعندما يكون هذا العمل أكثر الأعمال الممكنة أفضلية، فإن الضرورة تتشخص فى ذهن الإنسان بالحرية، والحرية بالضرورة" وعندئذ "لا أكون حرا إلا بمعنى أنى لا أستطيع أن أفسد هذه الوحدة ما بين الحرية والضرورة وأنى لا أستطيع أن أعارض الواحدة بالأخرى، وأن مثل هذه النقص فى الحرية هو فى الوقت نفسه أكبر عرض لها" .

وهكذا فإن الاكتشاف العظيم يتمخض عن أن الحرية هى عدم الحرية! وأن العجز عن العمل خلاف ما أعمل بالفعل هو نفسه أكبر عرض للحرية!! .

وبناء على هذه النظرية فإن ستالين أدعى أن الدستور الذى وضعه سنة ١٩٣٦ هو أكثر الدساتير ديمقراطية، كما يدعى الشيوعيون فى كل دولة يهيمنون عليها أن نظامهم – وليس النظم الديمقراطية الرأسمالية – هو الذى يتضمن أعظم قدر من الحرية !! .

ومن الواضح بالطبع أن نظرية العلم بالضرورة كتعريف للحرية هى معالجة سيئة وغير مرسلة، إن لم تكن محض تحايل، صحيح أن الضرورة تكون فى كثير من الحالات قيدا على الحرية أو إطارا مفروضا عليها بل وباعثا على تجاوزها ولكننا لا نعرف الأشياء بالقيود عليها أو الأضداد لها، فلا نقول إن الأبيض هو الأسود.. حتى وإن كان من المسلم به أن وجود الأسود يبرز من صورة الأبيض، وتعريف الحرية بأنها العلم بالضرورة خلط وتمييع وتحايل لأن كلمة الضرورة تقبل التأويل، وهى عملية لا ضابط لها، وكل يوم يشهد تفوقا للإنسان على الضرورة، فما كان ضرورة بالأمس

أصبح فى قبضة اليد اليوم. والمفروض أن يذكر مثل هذا التعريف عندما يكون الحديث بصدد العلاقة بين الإنسان والطبيعة وأن الضرورة التى فرضتها الطبيعة أثارت الحرية فى الإنسان حتى تغلب عليها، وحتى عندئذ فإنه لا يكون تعريفاً وإنماً إبرازاً لقدرة الإنسان حتى على الضرورة، ويبدو أن الزج بهذا التعريف فى مجال العلاقات الاجتماعية إنما أريد به إبراز الدولة الاشتراكية كضرورة تستوعب الحرية، ولا يختلف الأمر إذا قيل إن المقصود هو علاقات الإنتاج وملكية وسائل الإنتاج، لأن هذه تكون فى يد الدولة، وفى جميع الحالات فإن الحرية من هذه المنطلقات كلها لا يكون لها معنى سوى الإذعان والانقياد.. وتبرير هيمنة الحكومة الشمولية ..

ومقارنة هذا التعريف الشيوعى، بأقرب الصور إليه ألا وهو التصوير الإسلامى للقضاء والقدر[1] الذى تصوره "قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا" أو "الخيرة فيما اختاره الله" أو "لو علمتم الغيب لاخترتم الواقع" **يوضح لنا أن التعريف الشيوعى صورة مشوهة للتصور الإسلامى لأن المناط فى التصور الإسلامى هو فى يد الإله العادل القادر الرحمن الرحيم الذى هو رمز الكمال، ولا يملك أحد احتكار الحكم، باسمه فى حين أن "الضرورة" فى الشيوعية هى علاقات الإنتاج الصماء العمياء التى لا تملك – دون الإنسان – رؤية أو أن الضرورة فى مرحلة ما هى الدولة الشيوعية، ومأجوريها وزبانيتها، وقد وجد من المفكرين الإسلاميين من يرى أن الإنسان مخير لا مسير، بل ويلزم الله تعالى العدل.. وهو شىء لا يمكن أن يحلم به مفكر سوفيتى بالنسبة للدولة أو الحزب ...**

ولكى تكون الصورة كاملة يجب أن نشير إلى أن "الحرية" كانت دائماً مثلاً أعلى أوروبيا، لأن الحضارة الأوروبية إنسانية، ووثنية يقف فيها الإنسان فى مواجهة القدر والقوى التى مثلتها الميثولوجيا اليونانية ويستهدف

---

(١) أشـــار بليخانوف إلى تقارب فكرته مع فكرة القضاء والقدر الإسلامية، ولعلها الإشارة الوحيدة التى تنم عن معرفة بالفكر الإسلامى، حتى وإن كانت معرفة مغلوطة. واستشهاد فى غير محله .

التحرر منها لا الاستسلام لها، ولما كانت أوروبا فى حضارتها الوثنية اليونانية والرومانية لا تعرف الديانات السماوية وتكييفها للحرية، ولما كانت الأديان عامة، والإسلام خاصة، تقوم على إيمان الناس بالحرية، ولما كان هذا الإيمان لا يمكن أن يتوفر إلا بالإرادة الطوعية والاقتناع الوجدانى، فإن الأديان تعتز بالفرد وتجعله اللبنة فى بناء المجتمع الإيمانى وتجعل القلب هو قلعة الإيمان وحصنه الحصين أى أنها تعترف تماماً بالفرد وشخصيته وحريته وكرامته .

ومما يتفق مع هذا أن القرآن الكريم فتح باب الاعتقاد على مصراعيه ووجه كل واحد للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأقام عالم العلاقات بأسره على أساس العدل وحاول تحرير المجتمع من أسوأ وصمة فيه تشل الحرية وهى الرق وهذه الحريات كلها تتبع من الإيمان بالفرد والقلب والضمير، وفى هذه الحالات يختلف الإسلام اختلافاً تاماً مع الاشتراكية (الماركسية/ اللينينية) فى سحقها للفرد وقضائها على الحريات وإقامتها لديكتاتورية .

ثالثا: رفض الدولة الاشتراكية اللينينية :

ماذا نتوقع من نظرية جحدت الله تعالى وسحقت شخصية الفرد إذا قدر لها أن تصل إلى الحكم؟ فى كتابنا "الإسلام دين وأمة وليس ديناً ودولة" أثبتنا أن السلطة التى هى الخصيصة المميزة التى لابد وأن تتوفر للدولة، فإذا لم تتوفر فيها فلا تعد دولة – تفسد العقيدة والأيدلوجيا والقيم فإذا مست السلطة قيمة من هذه القيم – لتكن مثلاً العدل أو الحرية أو المساواة الخ... فإنها لابد وأن تفسدها. وقد أفسدت السلطة أفضل القيم – الأديان نفسها – فعندما دخلت السلطة فى الخلافة حولتها إلى مُلك عضوض. وعندما أصبحت المسيحية وهى ديانة الحب والسماح – دولة تحولت إلى محكمة تفتيش رهيبة. فإذا كانت السلطة تفسد كرائم القيم ويصل شرها للأديان نفسها، فما بالك إذا كانت النظرية نفسها فاسدة ؟. لقد غرس ماركس بذور الشر والفساد

فى الاشتراكية عندما جحد الله وعندما أقامها على مادية جدلية وعندما سحقت شخصية الفرد فعندما تحولت إلى دولة زادتها السلطة خبالاً، ونما لينين وتروتسكى وستالين البذور التى غرسها ماركس فأثمرت إرهابا، وديكتاتورية، وسفكت أنهاراً من الدماء وأقامت جبالاً من المظالم وفتحت أبواب المعتقلات التى أدارت تعذيباً ونظمت سخرة تصغر أمامها سخرة الرومان ..

وأسوأ شىء أن هذه الصورة المقيتة من الحكم أصبحت فى نظر الاشتراكيين أسرى لينين وستالين وعبدة الأصنام الحديثة هى الصورة المثلى للدولة وسعى أنصارها الذين أعماهم التعصب لتطبيقها فى الصين والسودان وكمبوديا وإندونيسيا الخ... فأضيف ماوتسى تونج، وهوشى منه وغيرهم إلى الآلهة المزيفة المعبودة من أتباعهم، وقتل وعذب الملايين.. ولا يقل ضحايا اشتراكية لينين واتباعه عن أربعين أو خمسين مليونا .

لن يغفر التاريخ للينيين أنه أهدر فرصة الدهر، عندما ولى الحكم باسم العمال، وعندما أسلم العمال إليه القيادة واعتبروه المنقذ من استغلال الرأسمالية وعبودية الأجور فحانت له اللحظة التى لم تحن لأى حاكم آخر **ليقيم حكماً اشتراكياً يتسم بالحرية ويوجد علاقات عمل اشتراكية تحل محل علاقات العمل التى فرضتها الرأسمالية على العمال.** ولكنه لم يحقق هذا، ولم يقف فى منتصف الطريق كما تفعل الديمقراطيات، ولكنه سار إلى آخر درجة بلغتها الرأسمالية من استغلال العمال وتمثلت فى "التيلورية" التى أبدعها المهندس الأمريكى فردريك تايلور للتوصل إلى الاستخدام الأمثل لكل حركة وسكنة من العامل وفرض على العمال الطاعة العمياء لرؤساء العمل وضرب الحركة النقابية، وهى التنظيم الأصيل للعمال واستلحقها بالحزب واعتبرها مجرد "السير ناقل القوى" من الحزب إلى الجماهير، وعندما ظهرت "معارضة عمالية" بقيادة عناصر نابهة ومخلصة وعريقة فى الحزب ثار لينين ثورة عارمة واتهمها بالسنديكالية والفوضوية وأصدر قراراً بتحريم أى معارضة لقرارات الحزب وأعطى سكرتير الحزب ستالين سلطات لا حد لها

لقمعها[1]. وكان اليد اليمنى له هو تروتسكى وزير الدفاع الذى هدم قاعدة كرونستاد البحرية على رؤوس بحارتها الذين أطلقوا الطلقة الأولى فى الثورة، والذى أبدع طريقة أخذ الرهائن، **وأراد "عسكرة العمل" وأن تصبح النقابات ثكنات تطبق على العمال وسائل الضغط والربط العسكرية وأصدر كتاباً بعنوان "دفاعاً عن الإرهاب" يبرر فيه حق الدولة فى ممارسة كل صور الإرهاب .**

إن الطغاة العسكريين، أمثال قيصر وأغسطس ونابليون الخ... مارسوا طغيانهم بدعوى الحكم العسكرى وما يقتضيه من ضبط وربط. أما لينين وتروتسكى فإنهما نظّرا قمع الحرية وأقاما هذا القمع على أسس مبدئية بحيث لا يصبح ضرورة بغيضة ولكن فضيلة محبوبة ! أو جزءاً لا يتجزأ من عمل الدولة .

وإذا كانت الاشتراكية ترفض الفاشية والنازية وتندد بهما، فالحقيقة أن الفاشية والنازية تعلمت فى مدرسة البلشفية وما هتلر وموسولينى إلا تلاميذ للينين وتروتسكى وقد سبق لينين العالم أجمع فى إقامة أعتى جهاز مخابراتى ومنحه سلطات مطلقة وسماه "درع الثورة" .

لا نبالغ إذا قلنا إن الفكر السياسى لم يتقهقر ويتخلف بل وينتكس مثلما حدث بظهور الدولة الاشتراكية التى وضع أصولها، ووسائلها وغاياتها لينين واتباعه، وأصبحت هذه الدولة هى لعنة العصر. وقد أهلكت الملايين بلا رحمة، وعذبت ملايين أخرى فى سجونها.. وقضت على ملايين ثالثة جوعاً وإرهاقا فى معسكرات السخرة.. وكان أول ضحاياها هم العمال ..

لا جرم إذا كنا نرفض الدولة الاشتراكية اللينينية قلبا وقالبا. ونرى فيها نكسة للتقدم البشرى. وإذا كان لها من حسنة فهى أنها أثبتت بمنطق العمل أن أى محاولة لشراء العدالة وبيع الحرية هى صفقة خاسرة تفقد الحرية والعدالة معا. وأن الحرية حرية الفكر والرأى والتعبير يجب أن تكون

---

(١) انظر تفصيل هذا فى كتابنا "المعارضة العمالية فى عهد لينين" دار الفكر الإسلامى .

حجر الأساس فى أى دولة تحترم الإنسان، وباطل أى دعوى أو تبرير للحجر عليها أو الانتقاص منها .

عوامل الاتفاق مع الاشتراكية ..

كانت الاشتراكية عندما رفعت لواء "المادية " أمينة وصادقة مع واقع الجماهير وإحساسها. إن الأغلبية العظمى والساحقة من الناس إنما تعنى أول ما تعنى بظروف حياتها، وأكل عيشها. كما يقولون - وفى هذا السبيل يذهب الناس إلى أعمالهم، ويكدحون من الصباح حتى المساء. وعلى الآجر يتوقف مستوى المعيشة ودرجة الوفاء باحتياجات الغذاء والكساء والسكن، ومستوى الصحة والثقافة والحالة النفسية والبعد - أو القرب من هموم الحياة ومشكلاتها وهذا الشبح المخيف الفاقة والذل والسؤال والدين والشقاق والشجار.

وقد تجاهلت الديمقراطية السياسية هذا الجانب الهام - كما أغفلته الكنيسة - وكان هذا نقصا بالغا منهما، وقامت به الاشتراكية كدعوة، حتى وان لم تستطع أن تحققه فى الواقع العملى، أو أخطأها التوفيق فيه .

من هذا المنطلق نقول إن الاشتراكية عندما فضحت الرأسمالية وكشفت استغلالها ونددت به، وعندما نادت بحق العامل فى الثورة على هذا الاستغلال وقدمت أسلوباً لكبح جماحه. فإنها قدمت خدمة كبرى للقضية الجماهيرية ولقضية العدالة الاجتماعية، لأن من الأصول التى تتقبلها دعوة الإحياء أن الرأسمالية مستغلة بطبيعتها ولا شفاء لها من هذا الاستغلال، ولكن يمكن مقاومته وكبحه والوصول به إلى أقل درجة عن طريق تشجيع العمال على تكوين النقابات. وتعزيز هذه النقابات بالثقافة والعلم والتنظيم السليم .

إن أهمية العامل المادى لا يجوز أن تكون محل نكران أو تجاهل، وفكرة أن الناس يجب أن يأكلوا ويشربوا قبل أن يفكروا ويتفلسفوا فكرة مقبولة ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ. الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ فالأمن من الجوع جاء أولاً ومبرراً للعبادة. وقد وضع الإسلام النظم لتيسيرها وإشباعها والحيلولة دون أن يحل الحرمان بالمسلمين، وكره أشد

الكره الفاقة، والسؤال، والاستدانة – وأحب للناس أن يستمتعوا بها فمن الخطأ أن نعيب على الاشتراكية أنها اهتمت أولاً وقبل كل شئ بالجانب المادي، على العكس يجب أن نشكر لها ذلك، وأن نراه الترتيب الطبيعى بالنسبة للأغلبية العظمى والساحقة من الناس، بل نرى أن الأديان نفسها إنما نزلت لوجود هذه الحقيقة بالذات، ذلك أن الله تعالى الذى جبل النفس الإنسانية وعلم ضرورة إشباع احتياجاتها المادية، وأهميتها وأنها لازمة لبقاء الكيان العضوى والحيوى للإنسان.. أراد أن يستكمل للإنسان ذلك الجانب الآخر الذى يمثل إنسانية الإنسان من فكر أو قيم أو معنويات أو إيمان فأنزل الرسالات السماوية. أى أن نزول الرسالات السماوية يفترض ضمنا التأثير البالغ للحاجات المادية، وأنها تكاد تستحوذ على النفس الإنسانية وتستأثر بها لولا نزول الأديان. **فالقضية قضية تكامل.. وليست قضية تعارض، وما ظل إشباع الحاجات المادية سليما فإن الإسلام ليس فحسب يقره، بل أيضا يثيب عليه .**

إن الله تعالى خلق أدم من طين "ثم" نفخ فيه. فالتشكيل الطينى والترابى الذى يمثل جسم الإنسان – وما يستتبعه من حاجات مادية – كان سابقا على تلك النفثة الإلهية التى كفلت للإنسان المعنويات والقيم، كما أن نزول الرسالات السماوية يفترض ضمنا وجود قصور فى الإنسان لا يمكن للإنسان نفسه أن يستدركه من تلقاء نفسه .

هذه الناحية توضح لنا أن الإسلام يعترف بالجانب المادى والجانب الروحى فى الإنسان على سواء. بينما تنكرت بعض المذاهب الدينية للحاجات المادية، ورأت فيها ضرورة بغيضة. وأغفلت الاشتراكية الجانب الروحى بل هاجمته زاعمة أن الدين أفيون الشعب. وكان هذا من أكبر المآخذ ووجوه النقص فى الماركسية إذ كان عليها أن تدرك أن العناية القصوى بالجانب المادى – وهو أمر حسن ونشكرها عليه – لا تستلزم أبداً أو بالضرورة تجاهل الجانب الروحى أو التنكر له. كما كان عليها أيضا أن **تحلل طبيعة ومدى إشباع الحاجات المادية، وان الأهمية القصوى لهذا الإشباع تقف عند درجة معينة تأخذ بعدها فى التناقص تبعا لقانون تناقص الغلة.** وإذا تجوهل

ذلك وسمح للإنسان بأن يمض فى الإشباع دون ضابط - فمعنى هذا أن ينساق وراء إغراء الربح والمال والبذخ والترف - باختصار الطريق الرأسمالى وهو أمر لا يعد مقبولا من الزاوية الاشتراكية بالذات قبل أى مذهب آخر كما كان يجب إن تلحظ أن الحاجات المادية فردية بطبيعتها وأن القيم و المعنويات جماعية مبدأيه بطبيعتها وان المجتمع لا يقوم أو يتماسك أو يتقدم إلا بفضل القيم والمبادئ وقد أدى تجاهل الماركسية لذلك إلى غلبة الطابع اللاأخلاقى عليها الذى يظهر فى سياستها الغادرة بجماهيرها وحلفائها وأفسح المجال لظهور السوءة العظمى: الديكتاتورية وأى محاولة للمقارنة بين أهمية الجانب المادى والجانب الروحى فى الإنسان لابد وان تكون محاولة عشوائية ظالمة، وأى تفاضل بينهما أو لمنزلة الواحد من الآخر لا يكون تفاضلاً حقيقيا أو دقيقا، وينطبق هذا على التصوير الاشتراكى الكلاسيكى الذى يجعل للقيم والمعنويات دورا علويا فوق البناء الأساسى - لأنه تشبيه سكونى "ستاتيكى" جامد ويوحى بالاستقلال ما بين الدور العلوى والدور الأساسى بينما التماسك والتفاعل والتلاحم بينهما دائم ومستمر .

ومع هذا فقد يمكن القول إن الحاجات المادية أقرب وأسرع وأكثر مباشرة فالإنسان - ككائن حيوى - لابد له أولا وقبل أى شيء آخر أن يتنفس - وان يأكل وأن يقى نفسه لذع الحر والبرد. وغير ذلك من الحاجات المادية، وما لم تكفل له هذه الحاجات، فإنه لا يستطيع بالطبع أن يستمتع بفن أو جمال. كما يغلب أيضا أن يسوء طبعه، وتنحط نفسيته، وتتحكم فيه خلائق الشر والعدوان أو الذل والنفاق .

وفى الوقت نفسه - فمن العسير أن نتصور مجتمعا يتوفر لأفراده الإحساس الدينى القوى والمشاعر الروحية والمعنوية مع الحرمان من الحاجات المادية. إن الصراع الرهيب عادة ما يتمخض بالنسبة للجماهير والسواد الأعظم من الناس عن انتصار الحاجيات المادية التى هى أكثر مباشرة ومساسا من المشاعر الروحية "على الأقل بالنسبة لأغلبية الناس". وقد خطا الإسلام خطوة عملية للحيلولة دون ذلك عندما فرض الزكاة كأداة للتكافل الاقتصادى وجعل العدل طابعه. لأن العدل وإن لم يكفل - بالضرورة

– الكفاية المادية إلا أنه يحول دون استشعار أسوأ الأحاسيس التى يثيرها الحرمان، لأن الفرد سيرى أنه ليس المحروم الوحيد، وفى الوقت نفسه فإن العدل سيحول دون أسوأ صور الحاجة والحرمان لأنه سيكفل حسن التوزيع وسيقضى على وجود الغنى الفاحش جنبا إلى جنب الفاقة المدقعة. وعلى هذا، فان الحديث عن الروح أو القيم مع وجود الحرمان والفاقة أمر لا يتسق أو يتلاءم، لأنه ينم عن فساد فى النظام، ويعسر مطالبة الناس بالرضوخ له والرضا به .

ولا جدال فى أهمية هذا العامل وضرورته ولكنه مع ذلك ليس العامل الوحيد الذى يملأ النفس البشرية، إنه يملأ المعدة، ويمكن أيضاً أن يؤثر على الفكر، ولكن هناك مناطق من الفكر لا يمكن أن يؤثر عليها إلا المبدأ الذى لا علاقة له بالمادة، بل قد يغلب أن يكون على حساب المادة، لأنه يكلف أصحابه التضحية بأنفسهم فيضحون بها ويتحملون الشظف والسجن والعذاب فى سبيله. وقد كان ماركس نفسه دليلاً على ذلك، فقد تحمل الجوع والشظف فى سبيل الفكرة التى آمن بها، وكانت ضد اتجاهات القوى المهيمنة ..

من ناحية أخرى، فإن العامل المادى وإن كان يمثل الأولوية لدى الجماعات والجماهير والأغلبية الساحقة من الناس، إلا أنه يفقد هذه الأولوية لدى عدد من الناس قد يكون قليلاً، ولكنه يمثل العنصر المؤثر، فلدى هؤلاء تكون للفكرة، والعقيدة، والمذهب الأولوية وهذه القلة تضم معظم الفلاسفة والأنبياء والعلماء والشعراء والكتاب والفنانين العظام.. أى العناصر المؤثرة فى المجتمع، والتى تقود حركته تحت لواء العقائد والأفكار.. وبقيادة هذه القلة وتحت لواء أفكارها تحركت الجماهير ونظمت مسيراتها.. وليس شرطا أن تكون الأفكار والعقائد صحيحة أو سليمة، فقد تكون خاطئة أو بدائية، ولكنها فى جميع الحالات بعيدة عن معيار المادة وميزان الكسب والخسارة .

إن هذه التفرقة بين العامل المادى وأثره على الأقلية النابهة، يضع الأمور فى نصابها ويعطى كل ذى حق حقه ويجمع بين أهمية العامل المادى

وأهمية العقائد والأفكار دون تناقض أو تعارض، فتحت لواء الأفكار قطعت البشرية مسيرتها نحو التقدم، وفى الوقت نفسه فإن قوى وعلاقات الإنتاج والحاجات المادية للجماهير تضغط على هذه المسيرة وتؤثر عليها، وتجعل طريق التقدم يسير نحو تحقيق الرخاء للجماهير وإشباع احتياجاتها المادية ..

وقد اضطر انجلز فى خطابه إلى شميدث (٥ أغسطس ١٨٩٠) لأن يعترف أنه هو وماركس يستحقان اللوم لما ذهب إليه أتباعهما من الشطط أو الظن أن العامل المادى وحده هو المؤثر، واعتذر بضيق الوقت، والملابسات والمناخ الذى كان سائدا وقتئذ، ولكنه اعتذار هزيل لا يقوى على مس الصرح الذى أقاماه بالفعل وأصبح قبلة الأتباع والمهووسين ..

وبعد هذا، فإن العامل المادى حتى وإن احتل الأولوية لدى الجماهير إلا أنه يعجز عن الاحتفاظ بهذه الأولوية، إن أثره يقل تدريجيا بقدر التوصل إلى درجة الإشباع، فهو يقضى بنفسه على نفسه ويضع بنفسه النقطة التى يبدأ فيها التناقص. ولعل هذا هو السبب فى نجاح الشيوعية فى الدول الفقيرة فعندما تلوح الشيوعية برغيفها المقدس فإن الجياع فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية يجرون وراءها. ولكن رغيفها المقدس لا يحرك ساكنا لدى الشعوب الغنية، لأنها تزهد فيه، ولابد لإثارة شهيتها من تقديم ما هو أفضل.. فإذا كانت قد بلغت هذا أيضاً فإن الشيوعية لن تجد ما تقدمه .

قد يقال إن الشيوعية عندما تدعو إلى الرغيف وتتجه للجياع فإنها تحقق شيئاً عظيماً. والدعوى بهذه الصورة ليست محل خلاف ونحن أول من يدعو إليها. وإنما الخلاف هو فى أن هذا الرغيف هو كل شىء.. والخلاف أيضا أن هذا الرغيف – باعتباره ممثلاً للحاجات المادية – لا يتحقق تماما فى كثير من الدول الشيوعية.. وأن الحكومة مع هذا تقتضى ثمنا ربويا فاحشا للكسرة التى تقدمها منه. وأن الجماهير فى كثير من الحالات لم تنل الرغيف – وفقدت – فى الوقت نفسه – الحرية .

وليس فى التركيز على العامل المادى. أو التقليل من العامل الفكرى والمعنوى ما يحمل الإنسان على الزهو! فالحيوانات لا تعرف إلا العامل

المادى والميزة العظمى للإنسان هى إدراكه للقيم والمثل، وفكرة السمو التى تلهمه وتجعله يتمتع بحياة إنسانية بمعنى الكلمة .

* * *

من الأفكار التى جاءت بها الاشتراكية التخطيط والتأميم ويقصد بالأول تنظيم الاقتصاد والإنتاج حتى لا يحدث ما تسمح به الرأسمالية الطليقة من فوضى، وتضارب. وإهدار. وهى أمور ملموسة ولم تنجح آليات السوق فى كبحها ويقصد بالثانى انتزاع ملكية وسائل الإنتاج (أى المصانع والأراضى الخ...) من الأفراد حتى لا يجعلوها وسيلة لاستغلال الشعب من عمال وفلاحين .

وقد طبق الاتحاد السوفيتى التخطيط فجعله مركزيا كما نفذ التأميم بأشد الطرق عنفا وبطشا، فلم يكتف بتجريد الرأسماليين والملاك من ثرواتهم، بل أستأصلهم أنفسهم، وأظهرت التجربة فشلاً كان من أكبر أسباب تهاوى الاتحاد السوفيتى وتحلله، فلا يمكن أبداً إدارة الاقتصاد بتخطيط مركزى فهذا لا يعنى سوى نقل بيروقراطية الحكومة إلى الاقتصاد بكل ما تتسم به من بطء، وتعقيد، وتعدد وشيوع المسئولية، بالإضافة إلى فقد وازع الربح وهو أكبر دافع لحيوية الاقتصاد وأصل عامل على بقائه ومقاومته لكل العقبات وكذلك انتفاء المنافسة التى هى معيار الكفاءة والنجاح. والاقتصاد فى الدول الرأسمالية أشبه بحصان سباق وهو فى الاتحاد السوفيتى سلحفاة بطيئة .

أما التأميم، فمن المحتمل أن كان وراء تطبيقه بتلك الشدة والقسوة، وتصفية الرأسماليين والملاك أنفسهم ما هو أكثر من الحيلولة دون الاستغلال، ولعله العمل على تفريد الدولة بملكية وسائل الإنتاج والقضاء على أى عنصر يمكن أن يكون له استقلال أو يحول دون ذلك أو يعرقله، وأصبح هذا التأميم فى حقيقته "تدولة" وأصبحت الاشتراكية رأسمالية دولة رغم كل الشعارات والشارات الاشتراكية وفى غياب الحريات والشفافية السياسية فإن هذا النظام يجمع ما بين سوءات الاستغلال الاقتصادى والاستبداد السياسى ويجعل الدولة التى ترفع راية الاشتراكية أعتى دولة رأسمالية فى العالم وأبعدها عن الحرية والعدالة .

ولا جدال فى أن الإسلام فى هذه النقطة يفضل الاشتراكية لأنه يسمح بالملكية سواء كانت إنتاجية أو استهلاكية فهذا هو حق الإنسان النشيط الذكى الذى يتفانى فى العمل ويحقق طموحه للمزيد من التقدم ويعطيه هذا قوة واستقلالاً. وهذه كلها فضائل ومزايا يجب أن تكون محل تشجيع أى نظام للحكم ولكن دون أن يتطرق هذا إلى استغلال فئات من الشعب كالعمال أو المستهلكين أو أن يكون على حسابهم ودون أن يؤدى إلى إهدار الموارد أو السماح بالتجاوزات التى تدفع إليها المنافسة والحرص على الربح وتجيزها الرأسمالية المنطلقة على غاربها. ولكن الخوف من هذه المحاذير، وهى محاذير قوية، يجب أن لا يدفعنا للقضاء على الملكية، فنقع فيما هو أسوأ منها فليس الخصاء هو الحل الأمثل لمعالجة الغريزة الجنسية، ويجب أن يكون لدينا الشجاعة لتقبل مواجهة ما تفرضه الضرورات من تعقيد وتشابك، وفى الوقت نفسه نعمل للهبوط بآثارها إلى الدرجة الدنيا، وهذا ما يحققه الإسلام بأن يوجب نوعا من "**التوجيه**" **لسياسة الاقتصاد القومى بحيث تحقق مصلحة الشعب جميعاً وما قد يخسره الرأسمالى بحكم العدل يكسبه بعدم إهدار الموارد فى منافسة قاتلة** – فضلاً عن أنه فى دولة إسلامية لابد أن يكون للقيم والالتزام بالمسئولية العامة حساب وتقدير ينبثق عن الإيمان الطوعى الذى تعززه القوانين أيضاً وهذا ما ينتفى فى الرأسمالية والاشتراكية فكل منهما لا خلاق له، لأنه ينبثق عن أساس واحد هو العامل المادى .

وتقوم مشروعية هذه الضوابط على أصلين: الأول أن الملكية فى الإسلام استخلاف فالمال أصلاً هو مال الله، وليس هذا كلاماً أجوف لأن الإنسان لم يوجد الأرض ولا أودع فى جوفها المعادن ولا أعطاها ملكة تنمية النبات. فهذه كلها مما خلقه الله ومما أوكل إلى الإنسان استخدامه واستغلاله فيما يرضى الله ويتفق مع توجيهاته، وثانيا: أن من المبادئ الرئيسية فى الإسلام أن **إساءة استغلال الحق، تجرد صاحبه منه** لهذا فإن الدولة لها حق أصولى فى توجيه الاقتصاد بما يوجبه الإيمان بالعلم والالتزام بالمستويات وملاحظة المصلحة القومية العامة دون أن ينفى هذا. أن المبدأ الأصلى هو الحرية والملكية .

ويمكن للدولة أن تدخل مجالات استثمار يعزف الرأسماليون عن دخولها أو أن تقدم إعانات لاستحثاثهم، ولكنها لا تتولى أبداً إدارة الأعمال والمنشآت الاقتصادية لأن الجهاز الحكومى غير مهيأ لهذه المهمة.. ودخوله لا يعنى إلا الفشل والخسارة وهى لا تفكر فى التأميم الذى يجعل الناس عالة وتبعا للدولة – والذى إذا نجح جعل الدولة إلها يحيى ويميت ويعطى الناس أو يمنعهم ويتحكم فى السكن والعمل والرزق.. وليس هذا كله من المصلحة فى شىء **ففشل التأميم خسارة ونجاحه نكبة ...**

خاتمة :

البديل

من الاستعراض السابق لكل من الاشتراكية، والقومية والعلمانية، ظهر لنا أن لكل منها وجوه نقص، وإن كان فى كل منها بالطبع جانباً من الحقيقة. فلا يمكن أن تعد صفوا خالصاً لا شائبة فيه يجوز لنا أن نأخذ به ونحن راضيين، ومطمئنين. فضلاً عن أن نتحمس له كما يفعل البعض .

وهناك ناحية أخرى لها دلالة عميقة. تلك هى أن هذه النظم الثلاثة كلها إنما تعبر عن تطور المجتمع الأوربى. فقد نشأت فى التربة الأوربية ثم ترعرعت، وتطورت فيها وكانت رد فعل لما أعتور المجتمع الأوربى من أوضاع وأحداث، اجتماعية وحضارية حدثت خلال القرون الأربعة الأخيرة فى أوربا مما لا يمكن أن ينقل نقلاً حرفيا من هذا المجتمع إلى مجتمع آخر يختلف عنه فى كل شىء. إن ذلك يشبه غرس مادة غريبة فى جسم إنسان. إن الجسد يلفظها ويرفضها ولا يتعامل معها. فإذا قيل إن المجتمعات تتشابه من ناحية أنها كلها مجتمعات إنسانية، وأن التطور يجمعها وأن ما حدث لأوربا منذ أربعة أو خمسة قرون يحدث لنا الآن نقول إن هذا كلام لا يؤخذ على علاته. فعوامل التمييز أكبر من عوامل التجميع. وقد نلحظها فى أخوين شقيقين فما بالك فى مجتمعين مختلفين فى كل شىء، المناخ، والتاريخ، العادات والتقاليد والرواسب الحضارية؟. إن هذا العامل وحده كفيل بأن يقفنا عندما نفكر فى الأخذ بأى واحد منها. فليست النظم قطع أحجار تنقل، ولا هى أزياء تلبس، إنها جزء من جسم المجتمع وروحه وتاريخه وحضارته

وليس التعقيد فيها بأقل من التعقيد الذى يتم – وإن لم يحس به أحد – فى فعالية الجسم الإنسانى وعمل الأعضاء وتفاعلها بعضها ببعض فى انسجام وتلاق ..

إن هذا هو ما يجعلنا نتوقف عن الأخذ بأى منها، ويجعل موقفنا الأمثل هو أن نستوعب بعض دروسها التى تتلاءم معنا، ونعكف عليها لتمصيرها أو تعريبها حتى يمكن أن نهضمها وتصبح جزءً من "المطبخ" العربى والمائدة العربية .

إن موقف العزوف من هذه النظم، الذى لا يحول دون الإفادة منها، هو الموقف نفسه من الديمقراطية التى لم نعرض لها فى هذا الكتاب، والذى يمكن أن تذكر كبديل. ولا جدال فى أن الديمقراطية أفضل من النظم الثلاثة التى عرضنا لها. بل إنها أفضل ما على الساحة الآن.. ولكنها أيضاً ذات أصل أوربى عريق بدأ مع ظهور أثينا قبل الميلاد بخمسة قرون، ومع أنها الأفضل – فإن ثغرات عديدة تخترقها وتفسد عليها أمرها. وأفضليتها هى أفضلية نسبية، أى بالنسبة إلى الديكتاتورية أو الشيوعية، ولكنها ليست الأفضلية الموضوعية أو المطلقة، ولم يكن لدى أوربا (وأمريكا) خيار سواها.. لأنها تمثل النهاية للتطور فيها أما نحن فليس لدينا هذا الإضطرار، لا من ناحية التطور ولا من ناحية الأفضلية خاصة وأن لدينا إذا أعملنا الذهن وإذا بذلنا الجهد – البديل الأفضل موضوعيا، والذى يمكن أن يعد نهاية لسلسلة التطور الخاصة بالمجتمع المصرى والعربى .

ما هو هذا البديل؟ إنه الإسلام، ليس فحسب كدين، ولكن بالأكثر كحضارة .

أما الصلة الوثيقة للإسلام بهذه المنطقة من الأرض فنحن لا نخالف الحقيقة إذا قلنا إنه يعود إلى ما قبل الإسلام نفسه من ناحية أن هذه البلاد ومنذ ظهورها التاريخى – أى منذ خمسة أو ستة آلاف سنة وهى ذات طبيعة إيمانية: يشغل الدين فيها صفة المحور أو الأساس، ويكون هو الأصل فى التشريع و السياسة والضمير والخلق، كان كذلك فى مصر الفرعونية وكان

هو شأنها أيضاً لحقبة محدودة مع المسيحية حتى جاءها الإسلام فآوت إليه وأوى إليها ورضيها ورضيته وتحت أعلامه كسبت انتصاراتها التاريخية التى كانت فى حقيقتها إنقاذاً للبشرية من الصليبيين الجهلة إلى التتار المخربين ولأكثر من ألف عام والإسلام هو محور هذه البلاد تاريخياً وتشريعياً وحضارياً ودينياً، وصنع لها ثقاتها، وعاداتها وتقاليدها، وامتزج بها وامتزجت به، وأصبحت العلاقة عضوية وحضارية وضاربة فى أعماق تاريخ ومجتمع هذه البلاد .

أما من الناحية الموضوعية، فإن الأديان أغنى وأثرى من أى فكر إنسانى فهو تبدأ حيث تنتهى الفلسفة وهى تقدم فلسفة للحياة الدنيا تعود إلى وجود حياة أخرى وتعيد الأسباب إلى سببها الأعظم الله تعالى وهى تعالج الفرد والمجتمع – الروح والمادة ولها طابعها المثالى الذى يعترف بالمادية، ويجعل لها موضعا وطعما مميزا لأنه يضعها فى "الخير" فانتفى الجانب السيئ لها.. ولأنه يتيح للمجتمع أن يجمع ما بين الفرد والشمولية على نحو فريد لا يتأتى للنظم الشمولية، لأنه يقوم على رابطة الإيمان التطوعى النفسى والداخلى وليس على الالتزام القسرى الخارجى ..

إن شعار "الإسلام هو الحل" رغم أنه يبدو فجاً، فاقعاً، فإنه فى الحقيقة يمثل البديل وقد صدر من أعمق أعماق النفس المصرية. وليس من شأن الشعارات بالطبع أن تقدم تفاصيل، ولكنه كشعار يقدم الحل ..

إن القضية كلها هى فهم الإسلام – فإذا فهم فهما سليما، كالذى فهمه الصحابة فيمكن أن يحقق اليوم ثورة مثل التى حققها عندما ظهر أول مرة.. وإذا فهمناه فهما سقيماً – كما هو اليوم – فإنه يكون من أكبر عوامل انحطاطنا. **فالقضية هى الفهم السليم للإسلام .**

وقد أمضينا خمسين عاماً لإيضاح وشرح الفهم السليم للإسلام منذ أن أصدرنا كتاب "ديمقراطية جديدة" سنة ١٩٤٦ متضمنا فصلاً بعنوان "فهم جديد للدين" ولا نزال حتى الآن نعمل فى هذا الميدان، وبدأنا دعوة الإحياء

الإسلامى لتحمل لواءه، ومن ثم فلا يتيسر فى هذه الخاتمة تفصيل[1]. ويكفى فحسب أن نقول إنه الإسلام المستلهم من القرآن عندما يفسر القرآن نفسه – أى دون التزام بتفسير المفسرين وتطبيق للسُنة عندما تلتزم السُنة بضوابط القرآن، والاستهداء بالحكمة – أى العقل – التى جعلها الله تعالى قرينة للكتاب عندما قال ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ . وهذا التكييف يكسبنا عناصر القوة والأصالة والإبداع فى الثقافات والحضارات وما تقدمه المعرفة قدر ما يبعدنا عن الفهم الضيق الآحادى السقيم الذى جاء به الفقهاء، وكان ثمرة اجتهادهم وابن عصرهم، وكان عصرهم عصر انغلاق واستبداد، فجاءت أحكامهم حاملة آثار هذين وكانت من أكبر أسباب تخلف المجتمع الإسلامى وإهماله لمقتضيات الحياة وإغفاله مشاعر وحقوق الجماهير .

فإذا خلصنا منه، وإذا عدنا إلى المنبع الصافى المتدفق المنفتح والذى تصب فيه كل روافد الحكمة من ثقافات ومعارف فإننا نجد البديل ..

وهذا الفهم الجديد يربط ما بين الإسلام وحضارة العصر، وما بين الإسلام والجماهير والجماعات التى تخرجها النظم السلطوية والمادية من حسابها بحيث يكفل لها الإسلام الأمن من الخوف والشبع من الجوع ويضمن الكرامة الأدبية لهم والخدمات المادية التى تتطلبها الحياة الكريمة ومستوى المعيشة الذى يكفله التوزيع العادل للثروات .

ولا يخالجنا شك فى أن هذا الحل الذى يرتكز على دعام معنوى وعلى كفاية مادية، ويجمع ما بين القيم والجماهير هو البديل الأفضل .

---

(١) سيقدم هذا التفصيل فى كتابنا المقبل "تحديات العصر تحاصر الإسلام" .

فهرست

الفصل الثانى
الموقف من القومية

الفصل الثالث
الموقف من الاشتراكية

.... هذا الكتاب ....

تترد كلمات "العلمانية" و"القومية" و"الاشتراكية" على ألسنة الخطباء وتتكرر فى الصحـــف وتفاوت أراء الناس فيها ما بين من يراها رجساً من عمل الشيطان ومن يراها أعظم منجزات العصر .

الكتاب الذى بين يدينا يفصل فى هذا الموضوع من وجهة نظر إسلامية – هى دعوة الإحياء الإسلامى – ويعرض الحقيقة فيها وما تتضمنه من نقط القوة والضعف لأن الإنصاف وتحرى الحقيقة هو دأب المؤلف .

والمؤلف يرى فى هذا الكتاب أن العلمانية – إذا كانت تعنى فصل الدين عن السلطة – أو الحكومة أو الدولة – بحيث لا تكون داعية لفكرة دينية. ليست بعيده عن روح الإسلام الذى يعتمد على الفرد، ثم الأسرة ثم المجتمع وأخيراً الأمة. وقـدجاء ذكر الأمة فى القرآن فى قرابة خمســين موضعاً، ولم يرد ذكر للدولة وقـد انتهى المؤلف إلى هذه النتيجة نفســها من منطلق مبدئى آخر هو أن السلطة تفسد الأيدلوجيا – أى العقيدة والقيم، وأن هذا ينطبق على كل الايدلوجيات كالأديان والاشــتراكية، وهى الفكرة التى شرحها فى كتابه "الإسلام دين وأمة وليس ديناً ودولة" .

والعنصر الهام فى الموضوع بالنسبة للإسلام الذى يجعله قريباً من العلمانية هو انتفاء المؤســسة الدينية والحــرب الشعواء التى شنها القرآن على الذين يحترفون الدين ويقفون بين الإنسان والله. وقــد كان طغيان المؤســسة الكاثوليكية هو السبب فى فصل الدين عن الحكومة فى الدول الأوروبية .

وليس معنى هذا إن العلمانية صفو كلها فقد يوجد فيها ما يخالف القيم الإســلامية من العكوف على "الدنيوية" وإغفال الحياة الآخرة .

ويرى المؤلف أن الصفة التى تحملها الدولة فى أمة مسلمة ليست هى العلمانية كما أنها ليســت الإسلامية. ولكنها المدنية لأن وظيفة الدولة الأساسية هى العمران وتشجيع الثقافة والعلم والقيم بالخدمات العامة الخ ...

عندما ينتقل المؤلف إلى القومية يقول إنه إذا أريد بالقومية الوطنية فهذ ما يقبله ويحض عليه الإسلام ولكن تطورات ظهور الفكرة القومية فى المجتمع العربى اقترنت بفكرة إيجاد بديل عن الإسلام. وفى رأى المؤلف أن القــومية إذا انتفى منها الإسلام أصبحت كصدفة فقدت لؤلؤتها.. ولا قيمة لها. وكشف المؤلف عن صفحة مجهولة تقدم بها الإمام الشهيد حسن البنا للمسئولين غداة تكوين الجامعة العربية تتضمن فكرة فى وحدة الأمة العربية وتعد هذه الوثيقة التى لم ترد فى كتابات الإخوان من أثمن الوثائق فى هذا المجال .

وأخيراً عالج المؤلف الاشتراكية. وهو يرى أنها كانت في اوروبا فى المرحلة قبل الماركسية رمزاً للعدالة التى تخلت عنها الكنيسة والدولة وجنى عليها التنظير والممارسة الراسمالية ومن هنا فإنها كانت تمثل الضمير الأو[illegible] على يدى ماركس طابع النظرية المغلقة التى تدعى أنها وحدها "العلمية" وأن غيرها أحلام وأمانى – وعـ[illegible] فى روسيا فإنه أوجد أسوأ نظام يمكن أن يوجد فى العالم فقد قضى على الحريات وأشاع الإرهاب وانفرد [illegible] بالحكم ومن هنا فإن الكتاب وإن تقبل الاشتراكية كدعوة مفتوحة للعدالة فإنه رفض الماركسية سواء كانت [illegible]

ولا يدع المؤلف القارئ فى حيرة أو ضياع بعد أن نقـد هذه النظم الثلاثة – إنه فى الخاتمة قــدم [illegible] عنوان البديل، وهذا البديل هو الإسلام عندما يفهم فهماً سليما من القرآن الكريم مباشرة ومن الســلوك [illegible] قيمّه الحضارية التى جعلته ثورة تحرير ودعوة حرية وعدالة... وأحال القارئ إلى كتاب سيصدر قريبــ[illegible] بالتفصيل

فإذا كان القارئ يريد الحقيقة، فسيجدها فى هذا الكتاب أما إذا كان مثقلاً بفكر سابق يســد عليه [illegible] آحادية فقد يضيق به.. وأن لم نعدم أملاً أن يكون باعثاً له على إعادة النظر فى فكره ...

دار الفكر الإسلامي